الباب الأول :في علم التفسير

الفصل الأول :المدخل إلى العلم

الفصل الثاني :التفسير بالأثر

الفصل الثالث :التفسير بالرأي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
المدخل إلى العلم

obeikandl.com

obeikandl.com

العلم وتعرفيه :

يتأسس الإسلام على منظومة ثلاثية تشمل : الاعتقاد والتشريع والأخلاق. ما يعني أن التصورات الاعتقادية ، والتطبيقات التشريعية ، والسلوكيات الأخلاقية – وهي أهم ما يشكل الإنسان – قد اشتمل عليها الإسلام في مصدريه : القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، نظراً لأن الإسلام آخر الأديان المنزلة إلى البشر.

إن المسلم يعتقد في صحة الحديث الشريف " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً "1، والناظر في هذا الحديث الشريف يرى – لأول وهلة – أن الإسلام يقوم أساساً على الشهادتين : أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله ، ما يلزم عنه الإيمان بالله تعالى رباً وإلهاً. وبالتالي فهو – سبحانه - خالق ومدبر ومشرّع ، ويأتي تشريعه من خلال التحليل والتحريم ، والأمر والنهي ، وهذا كله يحمله الخطاب الإلهي للبشر عبر جبريل ، عليه السلام ، وهو رسول ملك ، إلى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وهو رسول بشر ، وهذا الخطاب هو : القرآن الكريم.

والقرآن الكريم يمثل لدى المسلم قيمة عقدية ، وأخرى تشريعية ، وثالثة أخلاقية ، بل وتمتد القيم التي يمثلها القرآن الكريم لتشمل كل ما من شأنه أن يبين الصواب فيأمر باتباعه ، وما من شأنه أن يبين الخطأ فيأمر باجتنابه ، ولعل هذا هو ما نفهمه من قول الله تعالى " ذلك الكتاب

---

1 – أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري. بهامشه صحيح مسلم بشرح النووي. دار الكتاب العربي. بيروت . طبعة بالأوفست عن الطبعة السابعة. المطبعة الأميرية. بولاق. مصر 1323هـ مج1 ج1 ص85 ، عبد الكريم الجيلي : الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. مكتبة الحلبي. القاهرة 1981م ط4 ج2 ص131

لا ريب ، فيه هدى للمتقين "2 ، وقوله تعالى " ما فرطنا في الكتاب من شيء "3

والقرآن الكريم" كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ليكون علماً دالاً على نبوته، وليكون مرجعاً في الأحكام وفي معرفة الحلال والحرام ، وهو المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلاً متواتراً "4

ولما كان الأمر كذلك ، فإن القرآن الكريم لم يتنزل ملغزاً ولا معمياً ، بل نزل عربياً5 سهل الفهم 6، كلازمة ضرورية ليكون سهل التحول من كلمات مكتوبة ومقروءة ، إلى سلوك ممارس ومرئي ، وهذا ما قالته السيدة عائشة

---

2 – سورة البقرة : آية رقم 2

3 – سورة الأنعام : آية رقم 38

4 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. بهامشه إعجاز القرآن للباقلاني . مطبعة الحلبي. القاهرة ط3 ج1 ص50 :52 ، وللمزيد حول التعريف بالقرآن الكريم لغةً واصطلاحاً عند كل الاتجاهات الأصولية والفقهية والكلامية انظر كتابنا : القرآن والنبوة عند القاضي عبد الجبار. دار الهداية للطباعة والنشر. القاهرة 1996م ط1 ص19 :30

5 – انظر في الآيات التي تدل على ذلك. سورة النحل : آية رقم 103 ، سورة الشعراء : آية رقم 195 ، سورة يوسف : آية رقم 2 ، سورة فصلت : الآيتان رقم 3 ،44، سورة الرعد : آية رقم 37 ، سورة طه : آية رقم 113 ، سورة الزمر : آية رقم 28 ، سورة الشورى : آية رقم 7 ، سورة الزخرف : آية رقم 3 ، سورة الأحقاف : آية رقم 12

6 – جاء في ذلك قول السيوطي " اعلم أنه من المعلوم أن الله إنما خاطب خلقه بما يفهمونه ، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه ، وأنزل كتابه على لغتهم " انظر . جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن .ج2 ص176،174 ، وانظر أيضاً د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. دار الكتب الحديثة . القاهرة 1396هـ/1976م ط2 ج1 ص32

رضي الله عنها ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لما سئلت عن أخلاقه فقالت " كان خلقه القرآن "7

ولهذا... كان من لزوميات الإسلام أن يفهم المسلم القرآن الكريم على سبيل الوجوب ، إذ أن في فهمه إدراكاً لمعانيه ، لأن الإيمان بما لا يفهم " لا يحسن التعبد به "8 ، ذلك الفهم الذي لم يكن يعسر على فطرة العربي 9 ، بالقدر الذي لم يكن يعسر على ذاكرته حفظ القرآن الكريم 10، ثم جاءت شروح النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وإيضاحاته زيادة في الفهم وحسن الإدراك 11

---

7 – الحافظ أبو عبد الله محمد " الحاكم النيسابوري " : المستدرك على الصحيحين في الحديث. بذيله تلخيص المستدرك للذهبي. دار الفكر. بيروت 1398هـ/1978م ج2 ص392 ، 499

8 – القاضي عبد الجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل. ج16 " إعجاز القرآن " تقويم. أمين الخولي. الشركة المصرية للطباعة والنشر. القاهرة 1380هـ/1960م ط1 ص357

9 – د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه . مكتبة التوبة. الرياض 1413هـ ط1 ص14

10 – كان العرب – على وجه الإجمال – لا يقرأون ولا يكتبون ، إلا القليل منهم ، ولذلك جاء لتأكيد هذا الأمر قول الله تعالى في الآية رقم 2 من سورة الجمعة " هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم " وقوله تعالى في الآية رقم 157 من سورة الأعراف " الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل " وقوله تعالى في الآية رقم 158 من سورة الأعراف أيضاً " فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون " ولذلك فقد صح القول بأن العوض الحقيقي عن أمية العرب الذين أسلموا هو ذاكرتهم القوية. انظر في تفصيل ذلك. محمد بن محمد بن محمد بن يوسف الجزري : النشر في القراءات العشر . تحقيق د. محمد سالم محيسن. مكتبة القاهرة. مصر ج1 ص50

11 – أحمد بن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. تحقيق إبراهيم محمد. دار الصحابة للتراث. مصر 1409هـ/1988م ص65 ، 66 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير=

التفسير لغةً :

هناك أقوال كثيرة توضح المعنى اللغوي لكلمة " تفسير " نذكر منها على سبيل الإجمال لا الحصر :

القول بأن التفسير هو " تفعيل " من الفسْر ، وهو الإيضاح والبيان ، أو الإبانة والكشف عن المراد من اللفظ حامل الإشكال *12*

القول بأن التفسير هو " مقلوب " سفْر ، وهو بمعنى الكشف والبيان ، حتى قيل للمرأة التي تلقي خمار وجهها : سفرت. وقيل للصبح إذا أضاء وأشرق : أسفر... أي كشف وأبان *13*

=والمفسرون ج1 ص35 ، 36 ، د. مصطفي زيد : دراسات في التفسير. دار الفكر العربي. القاهرة ص9 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن .ج1 ص477 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ج2 ص174 ، د. مساعد مسلم عبد الله آل جعفر: التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي . مؤسسة الرسالة. بيروت 1405هـ/1984م ط1 ص51 :53 ، د. فهد عبد الرحمن سليمان : بحوث في أصول التفسير ومناهجه ص14 ، د. عبد الستار الراوي : العقل والحرية. دراسة في فكر القاضي عبد الجبار المعتزلي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1400هـ/1980م ط1 ص609

12 - جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري : تهذيب اللغة. تحقيق د. عبد الحميد النجار. الدار المصرية للتأليف والنشر. القاهرةج12 ص407 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص11 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان. ج1 ص470 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص13، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه ص7 ، الموسوعة العربية الميسرة. إشراف. محمد شفيق غربال. دار نهضة لبنان للطباعة والنشر. بيروت 1981م ج1 ص537

13 - الزركشي : البرهان في علوم القرآن. تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر 1400هـ ط3 ج147 ، د. مصطفى زيد : دراسات في التفسير ص15=د.

القول بأن التفسير من فسْر ، والفسْر والسفْر متقاربان في المعنى كتقاربهما في المبني *14*

وقيل في الفارق بين الفسْر والسفْر ، إن الأول يستخدم لإظهار المعاني المعقولة ، على حين يستخدم الثاني في إبراز الأعيان للأبصار*15* ، ولهذا جاء القول " التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي ، وفي الكشف عن المعاني المعقولة ، واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول "*16*

وقيل في التفسير إنه من الفسْر وهو كشف المغطى ، والتفسير كشف المراد من اللفظ المشكل*17*

=مساعد مسلم عبد الله آل جعفر : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي ص45

14 - الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج1 ص148

15 - الزركشي : المصدر السابق. نفس الموضع ، الحسين بن محمد " الراغب الأصفهاني ". المفردات في غريب القرآن. إعداد. د. محمد أحمد خلف الله. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة 1970م ص572 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص11 ، د. مصطفى زيد : دراسات في التفسير ص15 ، د. مساعد مسلم آل جعفر : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي ص45

16 - د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص13

17 - جمال الدين محمد بن مكرم " ابن منظور " : لسان العرب. مطبعة بولاق . القاهرة 1375هـ/1966م ج6 ص361 ، مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة 1973م ج2 ص850 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص11 ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بـ " الخازن " : لُباب التأويل في معاني التنزيل. بهامشه. مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. دار المعرفة. بيروت. ج1 ص10 ، دائرة معارف القرن العشرين. إعداد محمد فريد وجدي. دار المعرفة. بيروت 1971م ط3 مجلد7 ص286 ، د. محمد حسين الذهبي=

وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أن كلمة " تفسير " لم ترد فيه إلا مرة واحدة *18*، وذلك في قوله تعالى " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً *'19* ، تلك الآية الكريمة التي يفسرها القاضي " ناصر الدين البيضاوي " صاحب هذه الدراسة بقوله " ولا يأتونك بمثل – سؤال عجيب كأنه مثل في البطلان ،يريدون به القدح في نبوتك ،إلا جئناك بالحق – الدامغ له في جوابه ، وأحسن تفسيراً – وبما هو أحسن بياناً أو معنى من سؤالهم ، أو لا يأتونك بحال عجيبة يقولون هلا كانت هذه حاله ،إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ، وما هو أحسن كشفاً لما بعثت له *'20*. وجاء في شرح شيخ زاده ، قوله " ثم إنه تعالى لما فتح هذه السورة الكريمة بما يتضمن إثبات التوحيد والنبوة *21* ، ثم أورد أباطيل المخالفين فيهما ، وردهم في كل واحدة من تلك الشبهات الباطلة والسؤالات الفاسدة ، ختم الكلام بقوله " ولا يأتونك بمثل – أي لا يأتونك بشبهة وسؤال من جنس الشبهات المذكورة الواضحة البطلان كأنها مثل يمثل بها ، إلا جئناك بالحق - الذي يدمغ ما جاءوا به من المثل ويبطله ، كقوله تعالى

=:التفسير والمفسرون. ج1 ص13 ، د. مساعد مسلم آل جعفر : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص45

18 – د. نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص. دراسة في علوم القرآن. المركز الثقافي العربي. بيروت 1990م ط1 ص223 وما بعدها ، وانظر لنا : الإلهيات عند ناصر الدين البيضاوي. دار الهداية للطباعة والنشر. القاهرة 1994م ط1 ص46 ، الولاية عند عبد الكريم الجيلي. دار الهداية للطباعة والنشر. القاهرة 1994م ط1 ص25 وما بعدها ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص46

19 – سورة الفرقان : آية رقم 33

20 – ناصر الدين البيضاوي : تفسير القاضي البيضاوي. بحاشية محي الدين شيخ زاده. المكتبة الإسلامية. ديار بكر. تركيا. ج3 ص452

21 – يقصد سورة الفرقان ، وأول آياتها قوله تعالى " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً "

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق *22* – سمى ما يوردونه من الشبه مثلاً ، وما يدفع به الشبه حقاً ، وقوله إلا جئناك بالحق – استثناء مفرغ ، والجملة في محل نصب على الحال ، أي لا يأتونك بمثل في الحال من الأحوال إلا في حال إتياننا إليك بالحق ، وبما هو أحسن بياناً لما هو الحق والصواب ومقتضى الحكمة. وقوله وأحسن تفسيراً – التفسير هنا هو إظهار المعنى وبيانه مجازاً مرسلاً عن نفس المعنى المبين ، وأطلق اسم التفسير والبيان على المعنى لما بينهما من العلاقة "*23*

مما سبق يتضح لنا أن التفسير – لغوياً – هو التوضيح والبيان ، وإذا تعلق بالقرآن الكريم فيكون معناه توضيح معاني القرآن العزيز وبيانها ، ما يستلزم شرح مفردات الآيات التي يتناولها التفسير*24* ، وهذا كله عمل عقلي وفكري ، وهذا يتطلب إعمال العقل والتفكير ، فهو – التفسير – عملية عقلية لا ريب ، وهو " كشف ما أبهم في نص من النصوص ، وإرشاد القارئ أو السامع إلى ما عناه صاحب النص من نصه "*25*. وبعبارة أخرى هو " عملية القصد منها الإضافة إلى النص الأول من جهة ، ثم إعطاء هذا النص معنى جديداً من جهة أخرى "*26*

التفسير اصطلاحاً :

إذا كانت هناك أقوال كثيرة في تعريف التفسير من ناحية اللغة ، فإن الأمر أقل اختلافاً بشأن التعريف الاصطلاحي ؛

---

22 – سورة الأنبياء : آية رقم 18

23 – محيي الدين الشيخ زاده : حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي. المكتبة الإسلامية. ديار بكر. تركيا ج3 ص452

24 – د. مصطفى زيد : دراسات في التفسير ص15

25 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص46 ، د. أحمد السيد خليل : نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن. الوكالة الشرقية للثقافة. الإسكندرية. مصر 1373هـ/1954م ط1 ص7

26 – د. أحمد السيد خليل : نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن. ص7

حيث اتفق العلماء – رغم اختلاف اصطلاحاتهم – على أن يكون التعريف الاصطلاحي ذا دلالة لغوية ، وعلاقة هذه الدلالة اللغوية بالقرآن الكريم من حيث كون القرآن الكريم موضوع البحث وهدفه.

هذا... ويمكننا إيجاد إجماع بين العلماء المتخصصين في التفسير بشأن تعريفات التفسير اصطلاحياً :

فأحد هذه التعريفات قولهم " إن التفسير علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزّل على نبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحِكَمه "[27]

وثاني هذه التعريفات قولهم " إن التفسير علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على ما يعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية "[28]

وتعليقاً على هذين التعريفين السابقين يقول الدكتور الذهبي " الناظر – لأول وهلة – في هذين التعريفين ، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان في علم التفسير ، والحق أنهما داخلان فيه ، وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات : كقراءة " وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً ومُلكاً كبيراً "[29] بضم الميم وإسكان اللام ، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ "ومَلِكاً كبيراً " بفتح الميم وكسر اللام. وكذلك قراءة "حتى يطْهرن "[30] بالتسكين ، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ "حتى يطّهرن " بالتشديد. كما أن المعنى يختلف – أيضاً – باختلاف الرسم القرآني

---

27 – الزركشي : البرهان في علوم القرآن. ج1 ص13 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير . ص11 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص8

28 – قاسم القيسي : تاريخ التفسير. مطبعة المجمع العلمي العراقي. بغداد 1385هـ/1966م ص18 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص471 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص15

29 – سورة الإنسان : آية رقم 20

30 – سورة البقرة : آية رقم 222

في المصحف : فمثلاً قول الله تعالى " أمّن يمشي سوياً "31 بوصل " أمّن " مغاير في المعنى " أم من يكون عليهم وكيلاً "32 بفصلها ، فإن المفصولة تفيد معنى " بل " دون الموصولة "33

وتعليقاً على التعريف الثاني يقول صاحب " مناهل العرفان " مبيناً شرحه لهذا التعريف " المراد بـ " علم " : المعارف التصورية ، لقول البعض إن علم التفسير من قبيل التصورات34، لأن المقصود منه تصور معاني ألفاظه ، وذلك من قبيل التعاريف : لكن أكثرها – بل كلها – من قبيل التعريفات اللفظية ، لكن البعض الآخر يرى أن علم التفسير من قبيل التصديقات35 ، لأنه يتضمن حكماً على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعاني التي تذكر بجانبها في التفسير . وخرج بقولنا : يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم. العلوم الباحثة عن أحوال غيره. وخرج بقولنا : من حيث دلالته على مراد الله تعالى. العلوم التي تبحث عن أحوال القرآن الكريم من جهة غير جهة دلالته على مراده تعالى كعلم القراءات... فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها ، ومثل علم الرسم العثماني... فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه ، وخرج أيضاً بهذه الحيثية المعارف التي تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق ، فإنها من علم الكلام ، وكذلك المعارف الباحثة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها... فإنها من علم الفقه. وقولنا : بقدر الطاقة البشرية. لبيان أنه لا يقدح في

---

31 – سورة الملك : آية رقم 22

32 – سورة النساء : آية رقم 109

33 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص15

34 – التصور هو إدراك الشيء معرفياً دون أن يلزم عن هذا الإدراك حكم.

35 – التصديق هو إدراك الشيء ، ومصاحبة هذا الإدراك بحكم ، والحكم هو نسبة أمر إلى أمر على سبيل الإيجاب أو السلب.

العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات ، ولا عدم العلم بمراد الله تعالى في الواقع ونفس الأمر "36

وثالث هذه التعريفات قولهم " إن التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب ، وتتمات لذلك "37

ويخرّج لنا " أبو حيان " هذا التعريف بقوله " قولنا : علم. هو جنس يشمل سائر العلوم. وقولنا : يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن. هذا هو علم القراءات. وقولنا : ومدلولاتها. أي مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللغة ، الذي يحتاج إليه في هذا العلم. وقولنا : أحكامها الإفرادية والتركيبية. هذا يشمل علم التعريف ، وعلم الإعراب ، وعلم البيان ، وعلم البديع. وقولنا : ومعانيها التي يحمل عليها حالة التركيب. يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة ، وما

---

36 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص471

37 – محمد يوسف بن علي الأندلسي الغرناطي " أبو حيان " : البحر المحيط. دار الفكر 1403هـ ط2 ج1 ص13 ،14 ، ونفس المصدر. طبعة دار صادر. بيروت ج1 ص10 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص11 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص472 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص15 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص8 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص47 ، 48 ، ويجب أن نشير – هنا – إلى أن المقصود بـ "علم " : جنس يشمل سائر العلوم. والمقصود بـ " يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن " : علم القراءات. والمقصود بـ "مدلولاتها " : أي مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللغة ، الذي يحتاج إليه في هذا العلم. والمقصود بـ " أحكامها الإفرادية والتركيبية " : ما يشمل علم التعريف ، وعلم الإعراب ، وعلم البيان ، وعلم البديع. والمقصود بـ " تتمات لذلك " : معرفة الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول. انظر في تفصيل ذلك. ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص11

دلالته عليه بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد ، فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على الظاهر... وهو المجاز. وقولنا : وتتمات لذلك .هو معرفة الناسخ والمنسوخ ، وسبب النزول ، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن ، ونحو ذلك[38]

ورابع هذه التعريفات قولهم " إن التفسير هو علم نزول الآيات ، وشؤونها ، وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها "[39]

وخامس هذه التعريفات قولهم " إن التفسير علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده ، وأدائه ، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ ، والمتعلقة بالأحكام "[40]

والمقصود بـ " نزوله " : ما يشمل سبب النزول ومكانه. والمقصود بـ " سنده " : ما يشمل كل طرق الأداء كالمد والإدغام. والمقصود بـ " ألفاظه " : ما يتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقة أو مجازاً ، مشتركاً أو مرادفاً ، صحيحاً أو معتلاً ، معرباً أو مبنياً. والمقصود بـ " معانيه المتعلقة بألفاظه " : ما يشبه الفصل والوصل. والمقصود بـ " معانيه المتعلقة بأحكامه " : ما هو من قبيل العموم والخصوص ، والإحكام والنسخ[41]

وواضح من هذه التعريفات – إجمالاً – أنها تعريفات تتفق على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر

---

38 – محمد بن يوسف الأندلسي " أبو حيان " : البحر المحيط. ج1 ص13 ، 14 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص14

39 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص15

40 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص471

41 – المرجع السابق : ج1 ص471 ، 472

الطاقة البشرية . فهو علم شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد42

في التفسير والتأويل :

في جانب التحليل للدلالة اللغوية لكلمتي " تفسير " و" تأويل " نرى أنه من الضروري الإشارة إلى أن كلمة " تفسير " قد جاءت مرة واحدة في القرآن الكريم 43 ، على حين جاءت كلمة " تأويل " في القرآن الكريم سبع عشرة مرة 44 ما نفهم منه أن كلمة" تأويل " قد كانت ذات

---

42 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص15

43 – وذلك في قول الله تعالى في سورة الفرقان : آية رقم 33 " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ". وانظر في ذلك د. نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص. ص223 ، وانظر لنا : الإلهيات عند ناصر الدين البيضاوي. ص46 وما بعدها

44 – وذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران : الآية رقم 7 " وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ". وفي سورة النساء : الآية رقم 59 " فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ". وفي سورة الأعراف : الآية رقم 53 " هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ". وفي سورة يونس : الآية رقم 39 " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ". وفي سورة يوسف : الآية رقم 6 " وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ". والآية رقم 21 " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ". والآية رقم 36 " نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ". والآية رقم 37 " قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ". والآية رقم 44 " قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ". والآية رقم 45 " وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ". والآية رقم 100 " وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ". والآية رقم 101 " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ". وفي سورة الإسراء : الآية رقم 35 " وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً "وفي سورة الكهف

استخدامات أوسع ، وتداولات أشمل وأكثر قبولاً من كلمة " تفسير"، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية نجد أن الكلام في العلاقة بين التفسير والتأويل من شأنه أن يفتح آفاقاً جديدة – لو أريدَ – كي تكون العقلية العربية / الإسلامية أكثر تفاعلاً مع معطيات هذا العصر ... وكل العصور،ذلك لأننا نرى أن الكلام في هذه العلاقة يمثل الصورة التي عليها العقل والفكر في زمان ما ، ومكان ما.

إن هذه العلاقة ليست من الصعوبة المطلقة ، ولا هي من السهولة المطلقة ، بل هي بين بين ، فيما يمكن أن نسميه " السهل الممتنع "، ذلك لأننا سنلحظ – عبر تاريخنا – مراحل ازدهار عمت كل نواحي التفكير العربي / الإسلامي ، وغالباً ما تكون هذه المراحل مرتبطة بالأفق الأوسع لمساحة التأويل ، تلك المساحة التي كلما اتسعت كلما كان ذلك دليلاً على الأفق المعرفي الأكثر رحابة للعقل العربي / المسلم.

ونحن في هذه الجزئية من هذه الدراسة سنحاول بيان تلك العلاقة لغوياً واصطلاحياً ، ثم نبين – وهذا هو الأهم – المردود الفكري لمفهوم التأويل كدلالة على التفاعل بين الثابت والمتغير في تاريخنا الفكري الطويل.

<u>التأويل: الدلالة اللغوية :</u>

أصله من الأوْل. وهو الرجوع ، فكأنه بذلك" صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني"*45* ، وقد يكون من الإيالة، وهي السياسة ، فكأن المؤول" ساس الكلام ووضع المعنى في موضعه"*46*

وإلى نفس هذا المعنى نجد أن التأويل من الأوْل : وهو الرجوع إلى الشيء. يؤول ومآلاً : رجع ، وأول إليه الشيء :

: الآية رقم 78 " سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ". والآية رقم 82 " ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً "

45 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173

46 – المصدر السابق : نفس الموضع

راعه ، وآلت عن الشيء : ارتددت ، والأول : الرجوع ، والإيالة : السياسة : فلان حسن الإيالة وسيئ الإيالة *47*.

والتأويل: اشتقاق من الأوْل: وهو الرجوع إلى الأصل *48*. وعلى هذا يكون التأويل" مأخوذاً من الأول. وهو الرجوع ، وهو باعتبار أحد معانيه اللغوية كأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني "*49*

التأويل : الدلالة الاصطلاحية :

وأما التأويل من ناحية الاصطلاح ، فله عدة معاني ، ولا نجد بين هذه المعاني بعضها البعض اختلافات جوهرية :

فمن الدارسين من أجاز محاولة فهم لفظ من الألفاظ ، ليس بما هو مقروء ، بل بما هو مضمر ومجازي ، تأسيساً على أن العرب كانوا يجيزون تسمية الشيء بما هو شبيه أو مماثل أو مقارب له ، ولهذا جاء قولهم " التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية ، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو لاحقه أو مقارنه "*50*

---

47 – ابن منظور : لسان العرب. ج3 ص 33 ، 34 ، الراغب الأصفهاني : مقدمة في التفسير. ملحق بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار. مطبعة الجمالية. القاهرة 1329هـ ط1 ص402 : 404 ، مجد الدين الفيروز أبادي : القاموس المحيط. مطبعة الحلبي. القاهرة 1330هـ/1912م ج3ص331 ، جار الله الزمخشري : أساس البلاغة. بيروت 1965م ج1 ص15 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص15 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص8 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص48 ،49

48 – علاء الدين علي بن محمد " الخازن " : لباب التأويل في معاني التنزيل. ج1 ص10

49 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص15

50 – أبو الوليد بن رشد : فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. تحقيق د. محمد عمارة. دار المعارف. القاهرة 1972م ص31

ومن الدارسين من اصطلح على إطلاق لفظ التأويل بناء على الفهم غير الذي تأدّى عن ظاهر النص ، شريطة ارتباط ذلك الفهم بما اقتضى صرف الفهم عن الظاهر إلى الباطن ، وهذا هو معنى القول " التأويل هو حمل الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر ، بموجب اقتضى أن يحمل على ذلك ، ويخرج على ظاهره "51 ، وهو أيضاً معنى القول " التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به "52

ومن الدارسين من رهن العلة في صرف الفهم عن الظاهر إلى الباطن بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهذا هو ما قصده التعريف بأن التأويل " هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله ، إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً بالكتاب والسنة"53

وقد يمكن فهم التأويل على أنه محاولة لفهم ما لا يفهم معناه على حقيقته إذا نظرنا إليه باعتبار ظاهره ، بل لا بد من تأويله وصولاً إلى ما يضمر من المعاني والمقاصد ، ولهذا قيل " التأويل هو إرجاع اللفظ المحتمل لمعان كثيرة إلى معنى واحد ، فيقال : تأويل القرآن ، يلجأ إليه خاصةً لتوضيح أوصاف ومعان لا تقبل على ظاهرها ، كالذي يراد بالجسمية أو المكانية بالنسبة للباري تعالى ، والتأويل في الدين من القرآن والحديث هو تفسير النصوص الدينية

---

51 – ابن جزي أحمد بن محمد الكلبي : التسهيل لعلوم التنزيل. تحقيق محمد عبد المنعم اليونسي ، إبراهيم عطوة عوض. دار الكتب الحديثة. القاهرة. ج1 ص11

52 – ابن تيمية : الإكليل في المتشابه والتأويل. مكتبة أنصار السنة المحمدية. القاهرة 1366هـ ط2 ج2 ص15 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص18 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص50 ، د. مصطفى زيد : دراسات في التفسير. ص57 ،58

53 – الشريف الجرجاني : التعريفات. الدار التونسية للنشر. تونس ص28

على غير ظاهرها تفسيراً يتمشى مع مبدأ بعينه ، أو فكرة خاصة "54

ويعرّف البغوي والكواشي التأويل بأنه " صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها تحتمله الآية ، غير مخالف للكتاب والسنة ، عن طريق الاستنباط ، غير محظور على العلماء بالتفسير "55

وأخيراً... فالتأويل هو " بيان المعاني الموجودة والمستنبطة الموافقة للفظ الآية "56

العلاقة بين التفسير والتأويل :

إن دراسة العلاقة بين التفسير والتأويل قسمت الباحثين قسمين57 :

أحدهما يرى أن لا فرقاً بين التفسير والتأويل ،فكلاهما بمعنى واحد ، حيث إن " أول الكلام تأوله : دبره وقدره ،

---

54 - الموسوعة العربية الميسرة : إشراف محمد شفيق غربال. دار نهضة لبنان للطبع والنشر. بيروت 1401هـ /1981م ج1 ص487 ، ونشير هنا إلى أن تياراً - ما زال له ثقله - وقف ضد فكرة التأويل - بكل أشكالها ، حتى للمقبول منها - وتمثل هذا التيار في متشددي الحنابلة الذين رفضوا أن يفسر القرآن إلا حرفياً ، حتى حرّموا مخالفة خط مصحف عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، في " واو " أو " ألف " أو" ياء ". وقد استمر هذا التيار حتى أصبح اتجاهاً له مؤيدوه ، الذين بدّعوا مخالفيهم ، متمثلاً هذا الاتجاه في : أحمد بن حنبل ، وابن حزم الظاهري ، وابن تيمية الحراني. انظر في تفصيلات ذلك. جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص162،175 وما بعدها ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص91 وما بعدها ، د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي. بيروت 1973م ط1 ج2 ص29 ، جمال الدين القاسمي : تاريخ الجهمية والمعتزلة. مؤسسة الرسالة. بيروت 1399هـ/1979م ط1 ص57 وما بعدها ، د.عبد الستار الراوي : العقل والحرية.ص69 وما بعدها

55 - جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص180

56 - علاء الدين محمد " الخازن " : لباب التأويل في معاني التنزيل. ج1 ص10

57 - محمد الطاهر عاشور : التحرير والتنوير. مطبعة الحلبي. القاهرة 1964م ج1 ص12

وأوله وتأوله : فسره"58 ، ما نفهم معه أن " التأويل والمعنى والتفسير واحد "59

والآخر يرى أن هناك فرقاً بين كل من التفسير والتأويل ، حتى قرأنا قول من أنكر أن يكون التفسير والتأويل شيئاً واحداً ، مبالغاً في إيجاد التفرقة بينهما " قد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه "60

وهذا القسم أختلف فيه 61 :

فمنهم من رأى أن الاختلاف في العموم والخصوص ، فقال بعضهم بأن التفسير أعم من التأويل ، وقال الراغب الأصفهاني " التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله

---

58 – الفيروز آبادي : القاموس المحيط. ج3 ص331 ، ابن منظور: لسان العرب. ج11 ص33 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص472 ،473 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص18 ،19 ، د. مصطفى زيد : دراسات في التفسير. ص15 ،57 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص48 ،51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص8

59 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص49

60 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، وللعبارة بقية تبين تأفف قائلها – ابن حبيب النيسابوري – من المفسرين الذين قد لا يجدون أدوات التفسير وآلياته ، وإذا أجادوها فقد يستخدمونها في غير مواضعها كتملق الحكام والتكالب على الدنيا. انظر في ذلك. الزركشي : البرهان في علوم القرآن. ج2 ص152 ، د. نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص. دراسة غي علوم القرآن. ص219 وما بعدها

61 – ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل. تحقيق د. محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1399هـ ط1 ج1 ص201 :210 ، ج5 ص337 ،381 :384

في الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل كتأويل الرؤيا ، وأكثر ما يستعمل – يعني التأويل – في الكتب الإلهية ،والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها 62"

وعلى نفس هذا المنهج ،ولكن على عكس الرأي السابق ،قال البعض بأن التأويل أعم من التفسير ، فاعتبر التفسير الأخص ، وأسس هذا البعض رأيه هذا بناء على اعتقاده بأن التأويل متضمن في الكلام وغيره ، فقال : تأويل الكلام كذا ، وقال : تأويل الأمر كذا. على حين نجد أن التفسير يختص بالكلام ، فيقال تفسير الكلام كذا ، ما دفع هذا الفريق إلى الاعتقاد بأن الاختلاف بين التفسير والتأويل اختلاف في العموم والخصوص ؛ فجعلوا العموم للتأويل والخصوص للتفسير63

ومنهم من رأى أن الاختلاف بين التفسير والتأويل اختلاف تباين ، فقال الماوردي في ذلك " التفسير هو القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه ، والتأويل هو ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله "64

---

62 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، الراغب الأصفهاني : مقدمة في التفسير. ملحق بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار. ص402 وما بعدها ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص473 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص19 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص51 . د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص11

63 – سليمان بن عبد القوي الصرصري الطوفي : الإكسير في علم التفسير. تحقيق د. عبد القادر حسين. مكتبة الآداب. مصر. ص2

64 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص473 ، د. محمد حسين=

ومنهم من جعل الفارق بين التفسير والتأويل متعلقاً بالرواية من ناحية ، والدراية من ناحية أخرى ، فقيل في ذلك " التفسير متعلق بالرواية ، والتأويل متعلق بالدراية "65 ما دفع صاحب " لباب التأويل " إلى أن يقول " إن التفسير يتوقف على النقل المسموع ، والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح "66

والأمثلة على التفسير الذي هو متوقف على النقل المسموع كثيرة منها :

تفسير قوله تعالى" وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا "67 : هما الأوس والخزرج.

تفسير قوله تعالى" ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد "68 :هم الفرس وأهل اليمن.

تفسير قوله تعالى " ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا "69 : هو الأخنس بن شريق70

=الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص20 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص11

65 - جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، الزركشي : البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث. القاهرة 1984م مجلد 3 ص150

66 - علاء الدين علي البغدادي " الخازن " : لباب التأويل في معاني التنزيل. ج1 ص10 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص473 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص 173 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص21 ، الزركشي : البرهان في علوم القرآن. مج3 ص150

67 - سورة الحجرات : آية رقم 9

68 - سورة الفتح : آية رقم 16

69 - سورة البقرة : آية رقم 204

70 - جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص164

تفسير قوله تعالى "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله "71 : هو صهيب 72 ، فهذا... ونحوه " من التفسير ، ولا يتكلم فيه إلا بالسماع "73

والأمثلة على التأويل الذي هو متوقف على الفهم الصحيح ، تأويل قوله تعالى " انفروا خفافاً وثقالاً "74 ، قال بعضهم في تأويل هذه الآية الكريمة : أي شباناً وشيوخاً. وقال آخرون : أي فقراء وأغنياء. وقال قوم : أي عزباناً ومتأهلين. وقال جماعة : أي أصحاء ومرضى. وقال طائفة : أي نشاطاً وغير نشاط. فهذا كله " من التأويل ، وكله جائز ومقبول ولا بأس بالقول به بما يـوافق الأصول ولـم يخالف العقول "75

وقالوا في التفرقة بين التفسير والتأويل " علم التفسير للخلق ، وعلم التأويل للحق "76 ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى " وما يعلم تأويله إلا الله "77 ، فقالوا " هو فيما يرجع إلى الغيب الذي أبهمه الله تعالى كالساعة ومتى وقوعها وأشراطها ، ومتى ظهورها "78

وأشار السيوطي إلى التفرقة بين التفسير والتأويل حاكياً رأي الثعالبي فقال " قال أبو طالب الثعالبي : التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة وإما مجازاً ، كتفسير الصراط بالطريق ، والصيب بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ ، مأخوذ من الأوْل وهو الرجوع لعاقبة الأمر ، فالتأويل الإخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير إخبار عن دليل المراد

---

71 – سورة البقرة : آية رقم 207

72 – جلال الدين السيوطي :الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص164

73 – د. فهد عبد الرحمن الرومي. بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص10

74 – سورة التوبة : آية رقم 41

75 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص10

76 – المرجع السابق : نفس الموضع

77 – سورة آل عمران : آية رقم 7

78 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص10

، لأن اللفظ يكشف عن المراد ، والكاشف دليل ، مثل قوله تعالى " إن ربك لبالمرصاد "79 ، تفسيره : إنه من الرصد ، يقال رصدته : رقبته ، والمرصاد مفعال منه ، وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله ، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه ، وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه ، على خلاف وضع اللفظ في اللغة "80

ثم إن السيوطي قد جمع لنا مجموعة أقاويل للتفرقة بين التفسير والتأويل... لعل أهمها :

- القول بأن التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها ، بما ظهر من أدلة "81
- القول بأن التفسير في عرف العلماء كشف لمعاني القرآن ، وبيان المراد أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره ، بحسب المعنى الظاهر وغيره ، والتأويل أكثره في الجمل ، والتفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ : نحو البحيرة والسائبة والوصيلة ، أو في وجيز يتبين : نحو " أقيموا الصلاة وأتوا الزكاة "82 ، وإما في كلام تضمن لقصة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها ، كقوله تعالى " إنما النسيء زيادة في الكفر "83 ، وقوله تعالى " وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها "84 ، وأما التأويل فإنه يستعمل مرة عاماً ومرة خاصاً ، نحو الكفر المستعمل تارة في الجحود المطلق ، وتارة في جحود الباري تعالى خاصة

---

79 – سورة الفجر : آية رقم 14

80 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص11 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ج1 ص19

81 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173

82 – سورة البقرة : آية رقم 43

83 – سورة التوبة : آية رقم 37

84 – سورة البقرة : آية رقم 189

، والإيمان المستعمل في التصديق المطلق تارة ، وفي تصديق الحق أخرى ،وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة نحو لفظ " وجد " المستعمل في الجد والوجد والوجود85

• القول بأن التفسير هو ما وقع مبيناً في كتاب الله ومعيناً في صحيح السنة ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره ، بل يحمله على المعنى الذي ورد لا يتعداه ، والتأويل ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب الماهرون في آلات العلوم 86

ويشير الدكتور الذهبي إلى جواز أن يقال في هذين العلمين" التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة ، والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد عن طريق الإشارة "87 ، ثم يعلق على هذا الرأي الأخير بقوله " وهذا هو المشهور عند المتأخرين "88 ، ثم يبين لنا الرأي الذي يراه أكثر قبولاً فيقول " والذي تميل إليه النفس أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية ، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية ، ذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان ، والكشف عن مراد الله تعالى لا يجزم به إلا إذا ورد عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أو بعض الصحابة الذين شهدوا الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع ، وخالطوا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم ، وأما التأويل

---

85 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173 ، الراغب الأصفهاني : مقدمة في التفسير. ملحق بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار. ص402 وما بعدها ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص19 ،20

86 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173

87 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص20

88 – المرجع السابق : نفس الموضع

فملحوظ فيه ترجح أحد محتملات اللفظ بالدليل ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد و يتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب ، واستعمالها بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية ، واستنباط المعاني من كل ذلك "89

ويؤكد هذا المعنى قول الزركشي " الحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ، ومنه ما لا يتوقف ويكفي في تحصيله الثقة على الوجه المعتبر ، والسبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ليحيل على الاعتماد على السمع في المنقول وعلى النظر في المستنبط "90 ، لكن هذا الرأي يخالف ما ذهب إليه البعض في قولهم " في الواقع إن القول السائد بين العلماء هو أن التفسير والتأويل بمعنى واحد "91 ، ويدلل على رأيه هذا بقوله " العلماء يسمون التفاسير جميع الكتب التي تتعرض للقرآن الكريم بتوضيح لفظ أو إظهار معنى نص قرآني ، والعمل الذي يقوم به الشخص يطلقون عليه تفسيراً ، كما أن مؤلفي التفاسير سموها بأسماء لا تنبئ بالتفرقة بينهما : فتفسير الزمخشري اسمه " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " والبيضاوي سمى تفسيره" أنوار التنزيل وأسرار التأويل" وهذان العنوانان لا يدلان على أن صاحبيهما اقتصرا على معنى من المعاني الذي يتميز فيه كتاب أي منهما باعتباره تأويلاً دون التفسير أو العكس ، وهذا يدل – بدون شك – على أن الاصطلاح

---

89 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص22

90 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص183 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص22

91 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص51

العلمي الذي سار عليه العلماء ، والذي لا يزال جارياً إلى اليوم بين الباحثين ، أن التأويل والتفسير واحد "92

أنواع التأويل :

ويمكن تصنيف التأويل – وظيفياً – وفق احتمالات أربعة :

• فالتأويل تارة قد يأتي بمعنى تفسير الأحلام ، أو " تأويل الأحلام "، ومصداق ذلك سورة يوسف93 ، حيث نجد أن بناء هذه السورة القرآنية الكريمة – بكاملها – قائم على أساس " الحلم " الذي رآه يوسف ، عليه السلام ،والذي يتكلم هو عنه في صدر هذه السورة الكريمة " إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين "94 ، ونعرف – من سياق السورة ،ككل – أن هذا " الحلم " قد تم " تأويله " في نهاية القصة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فإن يوسف ، عليه السلام ، يقوم بتأويل " حلم " الملك كما جاء في الآية القرآنية الكريمة " وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون "95 ، والآية القرآنية الكريمة " يوسف أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتي بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون "96 ، كما قام – قبل ذلك – بتأويل " حلم " السجينين ، فأخبر أحدهما أنه سيصلب فتأكل الطير رأسه ، وأخبر الآخر أنه سينجو من

---

92 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص15

93 – سورة مكية ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية.

94 – سورة يوسف : آية رقم 4

95 – سورة يوسف : آية رقم 43

96 – سورة يوسف : الآيات 47 :49

السجن ، وطلب إليه أن يرفع أمره عند سيده بعد أن ينجو من السجن ، وهذا ما نفهمه من الآية القرآنية الكريمة " ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين "97 ، والآية القرآنية الكريمة " يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان "98 ، والآية القرآنية الكريمة " وقال للذي ظن منهما أنه ناج أذكرني عند ربك "99 ، وكل هذه " الأحلام " التي أوّلها يوسف ، عليه السلام ، تدل على صدق " حلمه " الأول ، الذي عبر هو عنه حين شكر ربه قائلاً " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين 100"

وغنى عن البيان القول بأن تأويل " الأحاديث " هو نفسه تأويل " الأحلام "101

• والتأويل قد يأتي تارة ثانية بمعنى الإخبار عن " حدوث " أمر قبل أن يكون قد وقع على سبيل الفعل ، ومصداق ذلك – أيضاً – ما نقرأه في قصة يوسف – عليه السلام – حين أخبر من معه في السجن أنه يستطيع – بقدراته التأويلية – إخبارهم عن الأشياء قبل حدوثها ، وهذا ما نفهمه من الآية القرآنية الكريمة " قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما

---

97 – سورة يوسف : آية رقم 36

98 – سورة يوسف : آية رقم 41

99 – سورة يوسف : آية رقم 42

100 – سورة يوسف : آية رقم 101

101 – د. نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص. دراسة في علوم القرآن .ص226 227،

علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون "102

• والتأويل قد يأتي – تارة ثالثة – بمعنى " تفهيم " الأحداث بعد وقوعها ، أي بيان الوجه المعرفي الصحيح للحدث بعد وقوعه ، حيث يراه البعض – حسب السقف المعرفي المتوفر لديهم – قبيحاً ، لكن هذا الحدث – بعد تأويله ،أي كشف الغموض المعرفي عنه – يبدو حسناً ، ومصداق ذلك ما وقع لموسى – عليه السلام – مع الخضر – العبد الصالح – حيث : خرق هذا " العبد الصالح " سفينة لفقراء كانوا يتكسبون منها ، وقتل غلاماً بغير ذنب ، وأقام جداراً بلا مقابل في قرية كان أهلها شديدي البخل لدرجة أنهم لم يضيفوا موسى والخضر. كل هذه الأعمال – بعد أن وقعت – رآها موسى – عليه السلام – غير دالة على الصلاح الذي كان يبدو على العبد الصالح – الخضر – لكن العبد الصالح يقول لموسى عليه السلام : سأنبئك بتأويل ما لم تستطيع عليه صبراً "103 ، وهو – هنا – إنما يقوم بشرح ما أبهم على موسى عليه السلام ، تأويلاً أي وصولاً إلى العلل التي لم يرها موسى عليه السلام : فالسفينة التي خرقها كانت لمساكين ، وكانوا يستخدمونها في التكسب وطلب الرزق ، وقد كان هناك ملك ظالم يغتصب كل سفن البحر كي يزيد بها سفن أسطوله البحري ، حتى إذا وجد ذلك الملك تلك السفينة معيبة – للخروق التي بها – تركها ، ومن ثم يقوم أصحاب السفينة – مساكين البحر – بإصلاحها واستخدامها مرة أخرى في طلب الرزق. وقتل الغلام ، إنما تم إنقاذاً لوالديه ، حيث إنه كان سينشأ كافراً يضيّق عليهما – وهما مؤمنان صالحان – الحياة ويكدر لهما العيش ، ومن ثم فإن قتل هذا الغلام خير لهذين الأبوين المؤمنين الصالحين. والجدار الذي أقيم ، كان لصغيرين يتيمين ابني رجل صالح ، وكان تحته

---

102 – سورة يوسف : آية رقم 37

103 – سورة الكهف : آية رقم 78

• قول الله تعالى " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون "140 ، فكلمة " لتبين " تعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين معاني القرآن الكريم وألفاظه بشكل كلي شامل ، ما نفهم منه – ضرورة – أن يكون الرسول قد بيّن كل معاني القرآن الكريم جملة وتفصيلاً ، وإلاّ كان" مقصّراً في البيان الذي كلف به من الله"141

• ما قاله أبو عبد الرحمن السلمي142 " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفّان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ؛ قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم جميعاً ، لهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة "143

والمفسرون. ج1 ص49 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص14

140 – سورة النحل : آية رقم44

141 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص65 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص49 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص15 ،16

142 – هو : عبد الله بن حبيب السلمي الكوفي القارئ. من التابعيين الأوائل ، أخذ قراءة القرآن الكريم على عثمان بن عفان ، وظل يعلم القرآن قراءةً لأكثر من أربعين سنة ، وهو غير أبي عبد الرحمن السلمي الصوفي ، فالأول مات سنة 72هـ ، والثاني مات سنة 412هـ. انظر في ترجمته. جلال الدين السيوطي : طبقات الحفاظ. دار الكتب العلمية. بيروت 1403هـ/1983م ط1 ص27 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص49

143 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص65 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176 ، ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. بهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين القمي النيسابوري. دار المعرفة. بيروت 1400هـ/1980م ط4 ج1 ص27 ،28 ،30 ، د. محمد حسين

وهذا الأثر – وغيره – يدل على أن الصحابة تعلموا من الرسول معاني القرآن كلها ،كما تعلموا منه ألفاظه144

- ما جاء في موطأ الإمام مالك بن أنس من أن ابن عمر " أقام على حفظ سورة البقرة ثمان سنوات "145 ، وواضح هنا أنه لو كان المقصود مجرد حفظ القرآن ، لما احتاج الأمر كل هذه المدة ، بل كان يكفي الزمن اليسير ، لكن هذا يعد دليلاً على أن المقصود إنما هو فهم معاني القرآن الكريم وليس مجرد حفظه146 ، وما دفع ابن عمر – وغيره من الصحابة – إلى ذلك هو فهمه للمقصود من حفظ القرآن وتجاوز مرحلة الحفظ إلى مرحلة الفهم والتدبر والعمل ، والدليل على ذلك قول الله تعالى" كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته "147 ، وهذا معناه أن " تدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وكل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، والقرآن أولى بذلك من غيره 148"

- ما عُرف من أن العادة " تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ، ولا يستشرحوه ، فكيف

الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص49 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص53 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص16 ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص308 ،331

144 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص50

145 – مالك بن أنس : الموطأ. تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية 1370هـ ج1 ص205 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص66 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176

146 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص16

147 – سورة ص : آية رقم 29

148 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص66 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص50

بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟"149

القسم الثاني :

يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن الكريم150 ، وهذا الفريق له أدلته التي يحتج بها لرأيه... منها :

- ما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها في قولها " لم يكن النبي يفسر شيئاً من القرآن إلاّ آيات تُعد ، علّمه إياها جبريل "151

---

149 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص 16 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج1 ص176 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص50 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص 16 ، عبد الرحمن العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص332

150 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص16 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص78

151 – ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص29 ،30 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص17 ، هذا ويرفض الطبري هذا الأثر عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، بمعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين للأمة إلا القليل من القرآن ، حيث يقول " الذي روى عن عائشة فيه علة ، ومع هذه العلة التي هي في إسناده لا يجوز الاحتجاج به ، لأن راويه ممن لا يعرف في أهل الآثار ، وهو جعفر بن محمد الزبيري " انظر ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة دار المعرفة. بيروت ج1 ص30 ، أبو حيان الغرناطي : البحر المحيط. ج1 ص13 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص18

obeikandl.com

• ما قاله السيوطي " إن القرآن الكريم إنما نزل بلسان عرّبي ، في زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظاهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر ، مع سؤالهم النبي في الأكثر "152

• ما قاله – أيضاً – السيوطي " علم التفسير علم عسير يسير ، أما عسره فظاهر من وجوه أظهرها أنه كلام متكلم لم تصل الناس إلى مراده بالسماع ، ولا إمكان الوصول إليه ، بخلاف الأمثال والأشعار ونحوها ، فإن الإنسان يمكن علمه منه إذا تكلم بأن يسمع منه ، وأما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك متعذر إلاّ في آيات قلائل ، فالعلم بالمراد يستنبط بإمارات ودلائل ، والحكمة فيه أن الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في كتابه ، فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته "153

• دعاء النبي لابن عمه عبد الله بن عباس " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل "154 ، يدل على أنه " لو كان الرسول بين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بهذا الدعاء فائدة ، لأنه يلزم من بيان الرسول لأصحابه كل معاني القرآن استواؤهم في معرفة تأويله ، فكيف يخص ابن عباس بهذا الدعاء ؟"155

لكن هذه المسألة الخلافية تحتاج إلى توضيح وبيان الأقرب إلى الصواب ، وهو : التوسط بين الرأيين ، حيث يمكننا القول بأن الرسول لم يبين لأصحابه " كل " معاني

---

152 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174

153 – المصدر السابق : ص174 ،175 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص17

154 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص179

155 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص17

دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي ، والصادق والكاذب "112

العلم وتاريخه :

نزل القرآن الكريم على النبي ، صلى الله عليه وسلم ،وهو أمي ، وعلى العرب وهم أميون – في الغالب الأعم – لا يقرؤون ولا يكتبون113 ، فنزل عربياً114 ، ذلك لأن الله تعالى ما نزل كتاباً على قوم إلا بلسانهم115، ما نفهم منه أن القرآن الكريم " نزل بلغة العرب ، وعلى أساليبهم في كلامهم ، فألفاظ القرآن الكريم عربية ، إلا ألفاظاً قليلة"116

وإشكالية وجود ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم ذي اللسان العربي المبين ، عولجت وفق اتجاهين :

---

112 – أبو حامد الغزالي : قانون التأويل. تحقيق محمد زاهد الكوثري. ملحق بمجلة الأزهر. عدد ربيع الآخر 1406هـ ص43 ، انظر في ضرورة منهج التأويل – وفق ضوابط محددة – ابن الجوزي الحنبلي " جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن " : دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة. نشر حسام الدين القدسي. دمشق 1345هـ. ص705 وما بعدها

113 – لقوله تعالى في الآية رقم 2 من سورة الجمعة " هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين " وانظر. محمد بن محمد الجزري. النشر في القراءات العشر. ج1 ص50

114 – لقوله تعالى في الآية رقم 2 من سورة يوسف " إنا أنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون "وفي الآية رقم 195 من سورة الشعراء " بلسان عربي مبين "

115 – لقوله تعالى في الآية رقم 4 من سورة إبراهيم " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم "

116 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص32 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص14 ، أحمد أمين : فجر الإسلام. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة 1978م ط12 ص195

obeikandl.com

• أحدهما : يرى " أنها ألفاظ عُرّبت وأخذت من لغات أخرى ، لكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها ، فصارت عربية بالاستعمال "117

• الثاني : يرى " أنها ألفاظ عربية بحتة ، غاية الأمر أنها مما توادرت عليه اللغات "118

ويعلّق الدكتور الذهبي على هذين الاتجاهين بقوله " وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تخرج القرآن عن كونه عربياً "119

وبنزول القرآن الكريم على هذه الهيئة أهّل العرب أن يكونوا أكثر فهماً له ووعياً وعملاً به120 ، غير أن هذا الفهم لا يعني أنهم – العرب – كانوا يفهمونه – القرآن – على سبيل التفصيل ومعرفة الدقائق الباطنة ، ذلك لمعرفتنا بأن القرآن الكريم يعلو على غيره من كلام العرب ، سواء بألفاظه وأساليبه اللغوية والبلاغية ، أو بمعانيه الرائعة التي افتن بها في غير مذاهبهم ، ما يعني تفاوت العرب في فهم القرآن الكريم ، بحيث إنهم كانوا يفهمونه إحمالاً ، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه ، فكان كل واحد منهم يفهم من القرآن الكريم على ما يوقفه على كونه معجزاً ، أما إذا أشكل عليهم لفظ أو معنى فكانوا يسألون الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فيبينه لهم ، لأن القرآن الكريم فيه المجمل والمشكل والمتشابه ، وغير ذلك ، مما يحتاج في معرفته إلى معارف وأمور أخرى 121

---

117 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص32

118 – المرجع السابق : ج1 ص23 ،33

119 – المرجع السابق : ج1 ص33

120 – المرجع السابق : ج1 ص33 ،34 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص14

121 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص33 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير. ص14

وهذا الأمر – فهم العرب لبعض القرآن الكريم أو كله – عالجها ابن خلدون من منظور قدرة العرب – بالسليقة – على فهم القرآن تفصيلاً ، فجاء قوله " إن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"122

لكن هذا الرأي يفنده الدكتور الذهبي بقوله " إن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضي أن العرب كلهم كانوا يفهمونه في مفرداته وتراكيبه ، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها "123

ولعل هذا هو ما أشار إليه السيوطي بقوله " إن القرآن الكريم إنما نزل بلسان عربي مبين في زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظاهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر ، مع سؤالهم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في الأكثر "124

من هذا كله نفهم أن الصحابة – وهم أول من فهم القرآن الكريم عن النبي – كانوا متفاوتين في عملية فهم القرآن الكريم : فمن الصحابة من كان مقدماً في فهم اللغة العربية أكثر من غيره ، ومنهم من كان أعلم بأسباب النزول أكثر من غيره. ولهذا صح القول " إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض "125

هذا... ويمكننا تقسيم المراحل التي مر بها علم التفسير إلى أربع مراحل :

<u>المرحلة الأولى : مرحلة التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم :</u>

---

122 – عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة. دار إحياء التراث العربي. بيروت ط4 ص438 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص33

123 – المرجع السابق : ج1 ص33 ،34

124 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علون القرآن. ج2 ص174

125 – أمين الخولي : التفسير. معالم حياته. منهجه اليوم. جماعة الكتب 1944م ص6 وما بعدها

لا شك أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان يبين للصحابة ما غمض عليهم من القرآن الكريم ، ما يمكن اعتباره تفسيراً126 ، ذلك لأن مصادر تفسير القرآن الكريم – مهما تعددت – فإن أهم مصدرين لتفسير القرآن الكريم هما : أن يفسر القرآن بالقرآن ، وأن يفسر القرآن بالسنة.

أما تفسير القرآن بالقرآن ، فمن المعروف أن القرآن الكريم اشتمل على " الإيجاز والإطناب "127 ، ما يعني أن " ما أجمل أو اختصر في مكان ، فقد فسر في موضع آخر ، وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر ، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى ، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى"128

هذا كله انتهى بالباحثين إلى ضرورة الرجوع إلى الآية في موضعها الخاص بها ، مع ربط موضوعها بوجوده في مواضع أخرى ، أو سياق آخر ، ذلك حتى " لا يكون المفسر في مأزق "129

لهذا كان من أدوات المفسّر أن يكون عالماً بما يتكرر في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، بأن يقابل الآيات ببعضها ، ما يسهل عليه معرفة الموجز بمعرفة المسهب ، ومعرفة المجمل بمعرفة المبيّن. وعلى هذا فمن تفسير القرآن بالقرآن " أن يشرح ما جاء موجزاً في القرآن بما جاء في موضع آخر مسهباً130 ، وأن يحمل المجمل على المبيّن

---

126 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص56-57

د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص37

127 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص10 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص175 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص37

128 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص10

129 – مثل قصة موسى عليه السلام مع فرعون : جاءت موجزة في سورة النازعات :الآيات رقم 15 :25 ،ثم جاءت مسهبة في سورة القصص :الآيات رقم2 44: 7،

ليفسر به ، وأن يحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، وأن يجمع بين ما يتوهم أنه مختلف131 ، وأن يحمل بعض القراءات على غيرها "132

وأما تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية ، فما لا شك فيه أن السنة النبوية المطهرة " شارحة للقرآن وموضحة له "133 ، وأن " علم السنة تكفل ببيان الكتاب العزيز ، ثم استقل بما لا ينحصر من الأحكام "134 ، والسنة – بهذا الوضع – تعتبر ملفاً ثانياً لا يقوم التفسير بدونه ، حيث نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مكلف بتبليغ القرآن الكريم إلى الناس لقوله تعالى " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين "135

هذا كله يمهد لنا القول بأن مرحلة تفسير القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت بتبليغه القرآن الكريم ساعة نزوله حتى يصل إلى كل واحد من الصحابة والمسلمين ، حتى نعلم أن الرسول إذا نزل عليه شيء من القرآن الكريم ، والمسلمون في إحدى الغزوات ،كان – صلى الله عليه وسلم – يرسل من يبلغهم ما نزل

---

131 – كتوهم الاختلاف عند الكلام عن خلق آدم من تراب في بعض الآيات ، ومن طين في آيات أخرى ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال. وفي الحقيقة فإنه ليس هناك اختلاف ، بل هو بيان للمراحل أو الأطوار التي يمر بها خلق آدم عليه السلام.

132 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص37 :40 ، محمد الطاهر عاشور : التحرير والتنوير. ج1 ص21

133 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص10 ،92 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص 176

134 – محمد بن علي الشوكاني : أدب الطلب. تحقيق. مركز الدراسات والبحوث اليمنية. صنعاء 1979م ص99

135 – سورة المائدة : آية رقم 67

عليه من القرآن الكريم136 ، إضافةً إلى أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يبين للصحابة ما خفي عليهم من القرآن الكريم ، ذلك مصداق لقوله تعالى " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون "137 ، ثم إن الناظر في كتب السنة " يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التي اشتملت عليها "138

وبدراسة مرحلة التفسير في عهد النبي نجد أن الدارسين قد انقسموا قسمين ، لكل قسم منهما أدلته التي يحتج بها لرأيه :

القسم الأول :

يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضّح / بيّن لأصحابه القرآن الكريم كله : إفراداً وتركيباً وأحكاماً ، كما بينه لهم ألفاظاً. وهذا الفريق يذهب إلي القول بأنه " يجب العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معاني القرآن ، كما بيّن لهم ألفاظه "139 ، وقد استدل هذا الفريق على صحة ما ذهب إليه بأدلة... منها :

---

136 – مثال ذلك لما كلف النبي صلى الله عليه وسلم علياً بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن يبلغ المسلمين سورة براءة. انظر في تفصيل ذلك : محي الدين شيخ زادة : حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي. ج3 ص318 :320 ، ابن جرير الطبري : تفسير الطبري " جامع البيان عن تأويل آي القرآن ". مطبعة الحلبي. القاهرة 1968م ج10 ص59 ، الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. مطبعة دار المعرفة. بيروت. بالأوفست 1400هـ/1980م ط4 ص44 وبالهامش تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن محمد القمي النيسابوري

137 – سورة النحل : آية رقم 44

138 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص45 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص14 ،15

139 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص65 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176 ،205 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير

• قول الله تعالى " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون "140 ، فكلمة " لتبين " تعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين معاني القرآن الكريم وألفاظه بشكل كلي شامل ، ما نفهم منه – ضرورة – أن يكون الرسول قد بيّن كل معاني القرآن الكريم جملة وتفصيلاً ، وإلاّ كان" مقصّراً في البيان الذي كلف به من الله"141

• ما قاله أبو عبد الرحمن السلمي142 " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفّان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ؛ قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم جميعاً ، لهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة "143

والمفسرون. ج1 ص49 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص14

140 – سورة النحل : آية رقم44

141 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص65 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص49 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص15 ،16

142 – هو : عبد الله بن حبيب السلمي الكوفي القارئ. من التابعيين الأوائل ، أخذ قراءة القرآن الكريم على عثمان بن عفان ، وظل يعلم القرآن قراءةً لأكثر من أربعين سنة ، وهو غير أبي عبد الرحمن السلمي الصوفي ، فالأول مات سنة 72هـ ، والثاني مات سنة 412هـ. انظر في ترجمته. جلال الدين السيوطي : طبقات الحفاظ. دار الكتب العلمية. بيروت 1403هـ/1983م ط1 ص27 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص49

143 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص65 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176 ، ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. بهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين القمي النيسابوري. دار المعرفة. بيروت 1400هـ/1980م ط4 ج1 ص27 ،28 ،30 ، د. محمد حسين

وهذا الأثر – وغيره – يدل على أن الصحابة تعلموا من الرسول معاني القرآن كلها ،كما تعلموا منه ألفاظه144

- ما جاء في موطأ الإمام مالك بن أنس من أن ابن عمر " أقام على حفظ سورة البقرة ثمان سنوات "145 ، وواضح هنا أنه لو كان المقصود مجرد حفظ القرآن ، لما احتاج الأمر كل هذه المدة ، بل كان يكفي الزمن اليسير ، لكن هذا يعد دليلاً على أن المقصود إنما هو فهم معاني القرآن الكريم وليس مجرد حفظه146 ، وما دفع ابن عمر – وغيره من الصحابة – إلى ذلك هو فهمه للمقصود من حفظ القرآن وتجاوز مرحلة الحفظ إلى مرحلة الفهم والتدبر والعمل ، والدليل على ذلك قول الله تعالى" كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته "147 ، وهذا معناه أن " تدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وكل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، والقرآن أولى بذلك من غيره 148"

- ما عُرف من أن العادة " تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ، ولا يستشرحوه ، فكيف

الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص49 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص53 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص16 ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص308 ،331

144 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص50

145 – مالك بن أنس : الموطأ. تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية 1370هـ ج1 ص205 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص66 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176

146 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص16

147 – سورة ص : آية رقم 29

148 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص66 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص50

بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟"149

القسم الثاني :

يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه إلا القليل من معاني القرآن الكريم150 ، وهذا الفريق له أدلته التي يحتج بها لرأيه... منها :

- ما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها في قولها " لم يكن النبي يفسر شيئاً من القرآن إلاّ آيات تُعد ، علّمه إياها جبريل "151

---

149 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص 16 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج1 ص176 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص50 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص 16 ، عبد الرحمن العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص332

150 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص16 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص78

151 – ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص29 ،30 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص17 ، هذا ويرفض الطبري هذا الأثر عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، بمعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين للأمة إلا القليل من القرآن ، حيث يقول " الذي روى عن عائشة فيه علة ، ومع هذه العلة التي هي في إسناده لا يجوز الاحتجاج به ، لأن راويه ممن لا يعرف في أهل الآثار ، وهو جعفر بن محمد الزبيري " انظر ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة دار المعرفة. بيروت ج1 ص30 ، أبو حيان الغرناطي : البحر المحيط. ج1 ص13 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص18

• ما قاله السيوطي " إن القرآن الكريم إنما نزل بلسان عربي ، في زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظاهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر ، مع سؤالهم النبي في الأكثر "152

• ما قاله – أيضاً – السيوطي " علم التفسير علم عسير يسير ، أما عسره فظاهر من وجوه أظهرها أنه كلام متكلم لم تصل الناس إلى مراده بالسماع ، ولا إمكان الوصول إليه ، بخلاف الأمثال والأشعار ونحوها ، فإن الإنسان يمكن علمه منه إذا تكلم بأن يسمع منه ، وأما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك متعذر إلاّ في آيات قلائل ، فالعلم بالمراد يستنبط بإمارات ودلائل ، والحكمة فيه أن الله تعالى أراد أن يتفكر عباده في كتابه ، فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته "153

• دعاء النبي لابن عمه عبد الله بن عباس " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل "154 ، يدل على أنه " لو كان الرسول بين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بهذا الدعاء فائدة ، لأنه يلزم من بيان الرسول لأصحابه كل معاني القرآن استواؤهم في معرفة تأويله ، فكيف يخص ابن عباس بهذا الدعاء ؟"155

لكن هذه المسألة الخلافية تحتاج إلى توضيح وبيان الأقرب إلى الصواب ، وهو : التوسط بين الرأيين ، حيث يمكننا القول بأن الرسول لم يبين لأصحابه " كل " معاني

---

152 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174

153 – المصدر السابق : ص174 ،175 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص17

154 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص179

155 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص17

القرآن الكريم ، كما أنه لم يبين لهم " القليل " منه ، إنما بين " الكثير" من معاني القرآن الكريم ، ذلك لأن فهم القرآن الكريم له أربعة أوجه156 :

وجه تعرفه العرب من كلامها ، وهذا الوجه يتمثل في الآيات القرآنية الكريمة التي يمكن الرجوع في فهمها إلى كلام العرب ، لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وهذا ما نفهمه من قول السيوطي " فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم من اللغة والإعراب ، فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها ، ولا يلزم ذلك القارئ. ثم إن كان ما يتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم ،كفى فيه خبر الواحد والاثنين ، والاستشهاد بالبيت والبيتين ، وإن كان يوجب العلم157 لم يكف ذلك ، بل لابد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهده من الشعر ، وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلاً للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ليوصل المفسر إلى معرفة الحكم ، ويسلم القارئ من اللحن ، وإن لم يكن محيلاً للمعنى وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه "158، وأيضاً من قول الطبري " من القرآن ما يعلمه كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن ، وذلك إقامة إعرابه ومعرفة

---

156 - ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. بهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان. لنظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري. دار المعرفة .بيروت 1400هـ/1980م ط4 ص25 ،26 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص182 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص478 ،479 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص103 ، عبد الرحمن محمد بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص375

157 - أي الاعتقاد

158 - جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص182 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص478 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص53

المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها ، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها ، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم ، ذلك كسامع منهم لو سمع تالياً يتلو " وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون "159 لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة ، وأن الإصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة ، وإن جهل المعاني التي جعلها الله إفساداً والمعاني التي جعلها الله إصلاحاً "160

ووجه ثان لا يعذر أحد بأن يكون جاهلاً به ،وهذا الوجه يتمثل فيما يتبادر فهمه إلى الأذهان ، وإنما سبب عدم الإعذار هنا راجع إلى أن هذا الوجه من أوجه فهم القرآن الكريم ظاهر وواضح بذاته ، بمعنى أنه لا يخفي على أحد ، فلا يحتاج إلى بيان ، وهذا ما نفهمه من قول السيوطي " وأما ما لا يعذر أحد بجهله فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ، وكل لفظ أفاد معنى واحداً جلياً يعلم أنه مراد الله تعالى ، فهذا القسم لا يلتبس تأويله ، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى " فاعلم أنه لا إله إلا الله "161 أنه لا شريك له في الألوهية ، وإن لم يعلم أن " لا " موضوعة في اللغة للنفي ، و" إلا " للإثبات ، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر ، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى "

---

159 – سورة البقرة : الآيتان رقم11 ،12

160 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص26

161 – سورة محمد : آية رقم 19

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة "162 طلب إيجاب المأمور به ، وإن لم يعلم أن صيغة " أفعل " للوجوب "163

ووجه ثالث يكون فهمه أو تفسيره وقفاً على العلماء دون غيرهم ، ويتمثل هذا الوجه فيما يرجع فيه إلى اجتهادات العلماء : مثل بيان ما هو مجمل ، وتخصيص ما هو عام... ونحو ذلك ، وهذا ما نفهمه من قول السيوطي " وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهاداتهم ، فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل ، وذلك كاستنباط الأحكام ،وبيان المجمل ، وتخصيص العموم ، وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي ، فإن كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي ، وإن استويا والاستعمال فيهما حقيقة لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية ، وفي الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى ،إلا أن يدل على إرادة اللغوية ، ولو كان في أحدهما عرفية والآخر لغوية ، فالحمل على العرفية أولى... إلى آخره "164

ووجه رابع يكون فهمه أو تفسيره لا يعلمه إلا الله تعالى165 ، وهذا الوجه الرابع – والأخير – يتمثل في كل ما استأثر بعلمه الله تعالى : كقيام الساعة ، وحقيقة الروح ، وغير ذلك من الغيبيات التي لم يُطلع الله تعالى عليها

---

162 – سورة البقرة : آية رقم 43

163 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص182 ، أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص26 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص478 ،479 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص53 ،45

164 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص182 ، أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص26 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص479

165 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص31

نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما نفهمه من قول السيوطي " وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو ما يجري مجرى الغيوب نحو الآي المتضمنة لقيام الساعة وتفسير الروح والحروف المتقطعة ، وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله "166 ، ومن قول الطبري " ما يعلمه الله الواحد القهار ما كان فيه إخبار عن آجال حادثة وأوقات آتية ، كوقت قيام الساعة والنفخ في الصور ونزول عيسى بن مريم ، وما أشبه ذلك ، فإن تلك الأوقات لا يعلم أحد حدودها ولا يعرف أحد من تأويلها إلا الخبر بأشراطها لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه "167 وهذا كله يدلل على أنه لما كان النبي لا يعلم هذه الأمور الغيبية ، فهو لم يبينها لأصحابه168 ، هذا بالإضافة إلى أن هناك في القرآن الكريم " آيات لا فائدة من معرفة أكثر من معناها المتبادر ، ولا طائل وراء معرفة ما هو أكثر من ذلك ، وهذا لا يبينه الرسول "169

---

166 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص182 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص479

167 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص26

168 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص182 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص474 وما بعدها ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص53 ،54 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص17 ،18

169 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص18

وبذلك يمكننا القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم " لم يبين لأصحابه كل آيات القرآن الكريم ، إنما بيّن لهم الكثير منها ، كما تشهد بذلك الصحاح "170

منهج الرسول في تفسير القرآن الكريم :

يتمثل منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن الكريم – على وجه الإجمال – في خمسة أصول :

بيان لمجمل أو توضيح لمشكل أو تخصيص لعام أو تقييد لمطلق ، وبيان لمعنى لفظ أو ما يتعلق به ، وبيان حكم – أو أحكام – زائدة على ما نص عليه القرآن الكريم ، وبيان لأحكام الناسخ والمنسوخ ، وبيان التأكيد والموافقة171

- أما الأصل الأول : فيتمثل في تبينه – عليه الصلاة والسلام – لما جاء مجملاً في القرآن الكريم ؛ فإن الصلاة – مثلاً – جاءت في القرآن الكريم على وجه الإجمال ، فبين النبي هذا المجمل من خلال كلامه عن مواقيت الصلاة وعدد الركعات والكيفية. ونفس القول يقال عن الزكاة والحج ؛ فقد بين الرسول أنواع الزكاة ومقاديرها وأوقاتها ، كما بين مناسك الحج بتوسع وتفصيل لم يردا في القرآن الكريم172
- كما يتمثل هذا الأصل في توضيح النبي لما جاء في القرآن الكريم مشكلاً ؛ فقد علمنا أن القرآن الكريم نص على حق المسلم – في شهر رمضان – أن يمارس حياته بشكلها المعتاد ، وذلك في ليل الصيام ، فجاء النص القرآني " وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من

---

170 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص53 ،100 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص205 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص18 ، أبو حيان الغرناطي : البحر المحيط. ج1 ص13

171 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص19

172 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص56

الخيط الأسود من الفجر "173 ففسره النبي بأنه بياض النهار وسواد الليل174

• كما يتمثل هذا الأصل في تخصيصه – عليه الصلاة والسلام – لما جاء في القرآن الكريم عامّاً ، مثل الكلام عن الظلم بوجه مطلق ، وذلك في قوله تعالى " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم "175 فظن الصحابة الظلم – هنا – على وجهه العام ، فقالوا للنبي : وأينا لا يظلم نفسه ؟ فخصص الرسول ما هو عام بقوله " ليس بذلك ، إنما هو الشرك " واستدل على ذلك بقوله تعالى " إن الشرك لظلم عظيم "176

• كما يتمثل هذا الأصل في تقييده – عليه الصلاة والسلام – لما جاء في القرآن الكريم على هيئة الإطلاق ، وذلك كما في قوله تعالى " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم "177 فهذا معنى جاء مطلقاً ، لكن الرسول قيّده بأن قصر القطع على اليد اليمنى178

• وأما الأصل الثاني : فيتمثل في بيانه – عليه الصلاة والسلام – لمعنى لفظ ما ، أو ما يتعلق بهذا اللفظ ، كما

---

173 – سورة البقرة : آية رقم 187

174 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص477 ،480 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص56 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص20

175 – سورة الأنعام : آية رقم 82

176 – سورة لقمان : آية رقم 13 ، وانظر في ذلك. جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص174 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص477 ،480 ، محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص56

177 – سورة المائدة : آية رقم 38

178 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص56

في معنى لفظ " المغضوب عليهم " لما بينه بأنهم اليهود. وهذا نص ما جاء في تفسير الطبري بهذا الشأن " فإن قال قائل فمن هؤلاء المغضوب عليهم الذين أمرنا الله جل ثناؤه بمسألته أن لا يجعلنا منهم ، قيل : هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في تنزيله ، فقال " قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل "179 فأعلمنا – جل ذكره – بمنّه ما أحل بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه ، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المغضوب عليهم هم اليهود "180 وكذلك بيانه – عليه الصلاة والسلام – لمعنى لفظ " الضالين " بأنهم النصارى. وهذا نص ما جاء في تفسير الطبري بهذا الشأن " فإن قال لنا قائل ومن هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يسلك بنا سبيلهم ، أو نضل ضلالتهم ، قيل : هم الذين وصفهم الله في تنزيله فقال " يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثالث ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ،وكفى بالله وكيلاً "181 ودليل ذلك قوله- عليه الصلاة والسلام – الضالون هم النصارى "182

---

179 – سورة المائدة : آية رقم 60

180 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص61 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص56

181 – سورة النساء : آية رقم 171

182 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت ج1 ص13 64،

• وأما الأصل الثالث : فتبيينه – عليه الصلاة والسلام – لحكم زائد على ما جاء في القرآن الكريم ، كتحريم زواج المرأة على عمتها أو خالتها183

• وأما الأصل الرابع :فتبيينه – عليه الصلاة والسلام – لما جاء ناسخاً وما صار منسوخاً ؛ ومثال ذلك قوله " لا وصية لوارث " نسخ الآية القرآنية الكريمة184 التي أجازت للمورّث أن يوصي لوالديه185

• وأما الأصل الخامس : فتبيينه – عليه الصلاة والسلام – للتأكيد والموافقة من السنة النبوية للقرآن الكريم ،كقوله " لا يحل مال إمريء مسلم إلا بطيب النفس منه " جاء موافقاً لقوله تعالى " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل "186 ، ما جعل السنة النبوية – في هذا الأصل – مؤكدة للحكم ومقوية له187

المرحلة الثانية : مرحلة التفسير في عهد الصحابة :

يمثل الصحابة188 الاستقبال الأول – والصحيح – للقرآن الكريم عن مستقبله الأول – النبي – بعد جبريل ، وما أهّلهم لذلك – بعد صحبتهم للنبي – أنهم كانوا " عرباً خُلصاً ، يفهمون القرآن ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى السليقة العربية ، فهماً لا تعكره عجمة ولا يشوبه تكرير ، ولا يشوبه شيء من قبيح الابتداع وتحكم العقيدة الزائفة

---

183 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص57

184 – نسخها هذا القول من الرسول ، حُكماً ، لكن الآية الكريمة تبقى تلاوةً.

185 – د. محمد حسين الدهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص57

186 – سورة النساء : آية رقم 29

187 – انظر في تفصيل هذه الأصول د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص55 :57

188 – الصحابي هو من شاهد رسول الله وهو مسلم ومات على الإسلام. انظر. أبو عبد الله محمد الحافظ النيسابوري : معرفة علوم الحديث. تصحيح د. السيد معظم حسين. المكتب التجاري للطباعة والتوزيع. بيروت. ص24

الفاسدة "189 وهم " مع كونهم أعلم من غيرهم بمقاصد الشارع ، هم – أيضاً – أهل اللسان العربي "190

لكنهم – مع هذا كله... وغيره – كانوا متفاوتين في فهم معاني القرآن الكريم ؛ بمعنى أنهم لم يكونوا في درجة واحدة بالنسبة لهذا الفهم ؛ فكانوا بين أمور... منها :

• بالرجوع إلى رسول الله إذا ما خفي عليهم معنى / مقصد / مرمى آية من آيات القرآن الكريم ،وكان – عليه الصلاة والسلام – يبين لهم ما خفي عليهم ، لأن الرسول " وظيفته البيان ، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون "191 وكما قال – عليه الصلاة والسلام – ألا إني أوتيت القرآن ومثله معي192... أي السنة.

• الاجتهاد الشخصي ؛ وهذه الجزئية لا تمثل انغلاقاً على الذات ، بل هي تفتح باباً واسعاً لمعرفة أحدهم من الآخر ما خفي عليه من هذه الآية أو تلك ، فالصحابي كان يرجع إلى الصحابي الآخر ، لأن ما قد أشكل على أحدهم ربما ظهر للآخر ، وذلك راجع إلى أمور... منها :

تفاوتهم – رضي الله عنهم – في قوة الفهم والإدراك.

تفاوتهم في معرفة ما أحاط بالآية – أو الآيات – من ظروف وملابسات.

تفاوتهم في معرفة المعاني التي وضعت لأجلها المفردات ، حيث نعرف أن " من مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة ، وظهر لآخرين في هذا ، فإن اللغة وإن أحاط بها عموم أهلها ، فإنه لا يحيط بها كل فرد

---

189 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص6

190 – محمد بن علي الشوكاني : أدب الطلب. تحقيق. مركز الدراسات والبحوث اليمنية. صنعاء 1979م ص116

191 – سورة النحل : آية رقم 44

192 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص13

من أهلها "193 فاللغة – بذلك – بحر واسع لا يدعي الإحاطة بها إلا نبي ، وبالتالي " فلم يدّع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها "194

أما الأمثلة على تفاوت الصحابة في فهم معنى الآية – أو الآيات – فكثيرة... منها :

توقف أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – عن تفسير ما قال إنه لا يعلمه ، حيث " سئل عن معنى " وفاكهة وأبّاً "195 فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم "196

ما خفي على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من معنى نفس الآية التي توقف عن الكلام فيها أبو بكر الصديق " وفاكهة وأبّاً " ذلك أن " عمر بن الخطاب قرأ على المنبر " وفاكهة وأبّاً " فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر "197

ما خفي على عمر بن الخطاب من معنى " التخوف"

---

193 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص34 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص19

194 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص34

195 – سورة عبس : آية رقم 31

196 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص27 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص99 ،100 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج1 ص113، عبد الرحمن بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص371

197 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص100 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج1 ص113 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون . ج1 ص34 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص19 ، أحمد أمين : فجر الإسلام. ص196

في قوله تعالى " أو يأخذهم على تخوّف "198 ذلك أنه " كان على المنبر فقرأ " أو يأخذهم على تخوّف " ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هزيل : التخوف عندنا التنقص "199

ما خفي على ابن عباس من معنى " فاطر " في قوله تعالى " فاطر السموات والأرض "200 ذلك أن ابن عباس قال " كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر ، فقال أحدهما أنا فطرتها ، يقول أنا ابتدأتها "201

ومن الأمثلة السابقة يتبين لنا أن الصحابة " وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم ، فوقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها ، أو تفاوتوا في معرفتهم "202 فإذا كان " عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى " الأبّ " ومعنى " التخوف" ويسأل عنهما غيره ،وابن عباس – وهو ترجمان القرآن203 – لا يظهر له معنى " فاطر" إلا بعد سماعها من غيره ، فكيف شأن غيرهما

---

198 – سورة النحل : آية رقم 47

199 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص34

200 – سورة الأنعام : آية رقم 14، سورة يوسف : آية رقم 101، سورة إبراهيم : آية رقم10 ، سورة فاطر : آية رقم 1 ، سورة الزمر : آية رقم 46 ، سورة الشورى : آية رقم 11

201 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص113 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي. بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص20

202 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص113 ، أحمد أمين : فجر الإسلام. ص197 وما بعدها

203 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. طبعة بيروت. ج1 ص31 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص187 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص94 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في=

من الصحابة ؟ لاشك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية "204

وأما أسباب هذا التفاوت في فهم القرآن الكريم بين الصحابة فمنها :

تفاوتهم – رضي الله عنهم – في أدوات الفهم وآلياته ، فمنهم من كان ذا علم واسع باللغة العربية ، ومنهم من كان دون ذلك.

تفاوتهم في الدراية بأسباب نزول الآية – أو الآيات – لأنه من المعلوم أهمية معرفة أسباب النزول كمدخل لفهم القرآن الكريم ، لهذا جاء عن السيوطي قوله " من العلوم التي يحتاجها المفسر أسباب النزول والقصص ، إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزّلة بحسب ما أنزلت فيه 205"

تفاوتهم في العلوم الشرعية ، وهي أدوات مهمة للتكلم في التفسير206

تفاوتهم في المستوى العلمي والعقلي " شأنهم في ذلك شأن غيرهم من البشر "207

<u>منهج الصحابة – رضي الله عنهم – في تفسير القرآن الكريم :</u>

قام تفسير الصحابة على ثلاثة أصول... هي :

- الأصل الأول : الأخذ بالقرآن الكريم. فمما لا شك فيه أن الصحابة كانوا أكثر الناس دراية واعتقاد بأن القرآن الكريم منه " ما جاء مجملاً في موضع وجاء في موضع آخر مبيناً ،

=علوم القرآن. ج1 ص483 ، عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي : مجموع فتاوى ابن تيمية. دار النهضة الحديثة. مكة 1404هـ ج6 ص542

204 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص35

205 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص181

206 – المصدر السابق : ج2 ص180 وما بعدها

207 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص35 ،36 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص20 ،21

ومنه ما فيه إيجاز وما فيه إطناب ، ومنه ما فيه عموم وما فيه خصوص ، ومنه ما فيه إطلاق وما فيه تقييد. وبمثل هذا يفسر القرآن بعضه بعضاً "208 ولهذا جاء قول ابن تيميه " أحسن الطرق في التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر "209

ونحن من جانبنا نعتقد أن تفسير القرآن بالقرآن هو أصح طرق التفسير ، لأن الله تعالى " أعلم بمراد نفسه من غيره ، وأصدق الحديث كتاب الله "210

- الأصل الثاني : الأخذ بالسنة النبوية. حيث نجد في تفسير الصحابة اعتماداً على أقوال الرسول ، وفي هذا الأصل نجد أن " كتب السنة النبوية قد أفردت باباً للتفسير بالمأثور ، ذكرت فيه كثيراً من التفسير النبوي للقرآن "211 ، فالأخذ بأقوال وأفعال الرسول ، كأحد أصول التفسير، إنما هو يعتمد على قوله عليه الصلاة والسلام " ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معي "212

وقد عدد لنا السيوطي أمثلة كثيرة لما ورد عن النبي من التفاسير التي يصح رفعها إليه213

- الأصل الثالث : الأخذ بالاجتهاد. فهذا الأصل الثالث من أصول التفسير عند الصحابة – الاجتهاد – يمثل – فيما

---

208 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص22 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص92

209 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص92

210 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص481

211 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص23 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص45

212 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص13 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص45

213 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص190 :205

نرى – اتجاهاً علمياً لبيان استمرارية صلاحية هذا الدين القويم لكل زمان ومكان ، حيث نجد الصحابة إذا لم يجدوا تفسيراً لما يريدون معرفته لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المطهرة ، فإنهم " يرجعون إلى اجتهاداتهم وإعمال رأيهم ، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد ، وأما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون في فهمه إلى إعمال النظر ، ضرورة أنهم من خلص العرب ، يعرفون كلام العرب ومناحيهم في القول ، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك في الشعر الجاهلي الذي هو ديوان العرب كما قال عمر بن الخطاب "214

وقد توافرت لدى الصحابة من أدوات الاجتهاد ما يجعل اجتهادهم موثوقاً به في كل نواحيه ، ولعل من أهم أدوات الاجتهاد التي توافرت للصحابة :

- أولاً : معرفتهم – بشكل جيد – بأصول وأوضاع اللغة العربية وأسرارها ، ما يجعل فهمهم للقرآن الكريم فهماً صحيحاً ، في آياته التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب.
- ثانياً : معرفتهم بعادات وتقاليد وأخلاق العرب ، ما يعينهم على فهم – ومن ثم تفسير – الكثير من الآيات القرآنية ذات العلاقة بإصلاح عادات العرب وتهذيب سلوكياتهم ، كالآيات التي تتناول سلوكيات اجتماعية معيبة أراد القرآن الكريم تغييرها ، كما في قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم

---

214 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص57 ،58

"215 وقوله تعالى " وليس البر بأن تأتوا البيوت من بيوتها "216 والآيات الكريمة التي تتناول عادات اجتماعية معيبة أراد القرآن الكريم تغييرها ، كما في قوله تعالى " وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت "217 كل هذا يجعلهم على فهم كامل بالمراد من هذه الآيات وغيرها.

- ثالثاً : معرفتهم بأحوال اليهود والنصارى في الجزيرة العربية – موطن الإسلام الأول – في وقت نزول القرآن الكريم ، ما يمهد لهم حسن معرفة الآيات التي تتناول هذا الأمر ، ومن ثم معرفة تصرفات اليهود والنصارى ، فضلاً عن معرفة ما في نفوسهم.
- رابعاً : معرفتهم بأسباب النزول ، حيث يُعد العلم بأسباب النزول مدخلاً أولياً يجعل المفسر على دراية واسعة بالآية التي عرف سبب نزولها ، لأن " العلم بالسبب يورّث العلم المسبب "218

<u>خصائص تفسير الصحابة رضي الله عنهم :</u>

لتفاسير الصحابة خصائص وميزات على كل الصعد219 ، سواء منها الاعتقادية أو اللغوية ، وما إلى ذلك من مداخل

---

215 – سورة الحجرات : الآيتان رقم 11 ،12

216 – سورة البقرة : آية رقم 189

217 – سورة التكوير : الآيتان رقم8 ،9

218 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص15 ،72 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص181 ، وانظر في تفصيل هذه الأدوات ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص14 وما بعدها ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص58 ،59 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص24 ،25

219 – ذلك لأنهم – رضي الله عنهم – " أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح " انظر. ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص13 ،93 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص176

وأهداف التفسير ، لكن أهم ما تميزت به تفاسير الصحابة... هو :

قلة وجود " الإسرائيليات " ذلك لأن الصحابة كانوا الأقرب إلى الرسول ، ومن ثم فلم نجد أحداً منهم يترك نبع الإسلام الصافي الصادق إلى غيره من الإسرائيليات أو ما سواها.

الاقتصار على آيات بعينها دون آيات أخرى ، لأن الآيات غير المفسرة كانت واضحة بالنسبة إليهم ، لأنهم كانوا على علم واسع / دراية كبيرة باللغة العربية.

عدم التعمق فيما يرون وجوب الإيمان به دون التعمق في باطنه لا تفسيراً ولا تأويلاً ، فاكتفوا – على سبيل المثال – بمعرفة أن المراد بقوله تعالى " وفاكهة وأبّا "220 هو " تعداد نعم الله تعالى على عباده "221 ولم نجدهم يبحثون فيما " لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته ، وذلك كالكلام في لون كلب أهل الكهف واسمه ، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، وفي قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر "222 حتى قرأنا أن الصحابة " كانوا يعدون مثل ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات "223

---

220 – سورة عبس : آية رقم 31

221 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص35 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص21 ، أحمد أمين : فجر الإسلام. ص196

222 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص177 ، وفي تفصيل ذلك انظر. أبو عبد الله محمد بن سعد : الطبقات الكبرى. دار صادر. بيروت 1388هـ ج12 مواضع مختلفة ، الإمام أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد. تحقيق أحمد محمد شاكر. دار المعارف. مصر 1373هـ ط4 ج9 :12 مواضع مختلفة ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص97 ،98 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص76 ،95 ،96

223 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون.ج1 ص170

المرحلة الثالثة : مرحلة التفسير في عهد التابعين :

للأخذ عن تابعي في مجال التفسير قيمته التوثيقية والمعرفية التي لا يجب التشكيك فيها ، ويكفي – تدليلاً على ذلك – قول النبي " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم "224 والقول " إن التابعيين تتلمذوا للصحابة فنقلوا أغلب معلوماتهم عنهم "225

والناظر في تفسير التابعيين لا يجد فارقاً كبيراً بينه وبين تفسير الصحابة ، فكما كان الصحابة يرجع إليهم لمعرفة ما خفي من كتاب الله ، فإن التابعيين كانوا – كذلك – يتكلمون في التفسير ويوضحون لمعاصريهم ما قد يكون خافياً عليهم من معاني القرآن الكريم ،كما أن كثيراً من التابعيين كانوا يتحرجون من الكلام إلا في القليل ، حتى نعلم أن " سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية من آيات القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً. بمعنى أنه لا يتكلم في المعلوم من القرآن "226 ولهذا جاء فيه القول " كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع "227 وجاء عن آخرين ترددهم في الكلام ،

---

224 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص11 ، عبد الرحمن محمد بن قاسم العاصمي النجدي : مجموع فتاوى ابن تيمية. مكتبة النهضة الحديثة. مكة. ج13 ص24

225 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص13 ،66 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص178 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون . ج1 ص99 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه . ص30

226 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص101 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص99، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص30

227 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص101 ، عبد الرحمن بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص373

مع كثرة علمهم ، فجاء قول الشعبي " والله ما من آية وقد سألت عنها ، ولكنها الرواية عن الله "228

وهذا الكلام لا يعني كتم العلم ، إنما يعني أنه كلام محمول " على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه. ولهذا روى عن التابعيين أقوال في التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ،فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى " لتبيننه للناس ولا تكتمونه "229 ولما جاء بالحديث النبوي الشريف المروي من طرق " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار "230

منهج التابعين في تفسير القرآن الكريم :

لما كان التابعيون قد أخذوا أغلب تفاسيرهم عن الصحابة فإنهم - بلا شك – يشاركونهم في الكثير من الأسس المنهجية التي وضعوها كقواعد عامة للتفسير ، لكن لما جدّت ظروف لم تكن موجودة في عهد الصحابة : مثل اتساع الفتوحات الإسلامية ، ودخول كثير من العجم الإسلام ، وزيادة الغموض في فهم بعض آيات القرآن الكريم ... لما جدّت هذه الظروف – وغيرها – أضاف التابعيون إلى أسس الصحابة في التفسير أسساً جديدة ، ونستطيع أن نجمل هذه الأصول التي قام عليها تفسير التابعيين في الآتي :

- الأصل الأول : الأخذ بالقرآن الكريم. ذلك لأن التابعيين يشاركون الصحابة في جعل القرآن الكريم أول الأصول التي يجب أن يقوم عليها التفسير وأهمها ، وهذا الأصل لا خلاف فيه بين مسلم ومسلم ، فما بالنا بالصحابي والتابعي ؟

---

228 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص102 ، عبد الرحمن بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص374

229 – سورة آل عمران : آية رقم 187

230 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص102

• الأصل الثاني : الأخذ بالسنة النبوية. فكما وجدنا الاتفاق تاماً بين الصحابة والتابعيين في جعل الأصل الأول – والأهم – هو القرآن الكريم ، نجدهم متفقين – أيضاً – على كون السنة النبوية الشريفة الأصل الثاني من هذه الأصول التي تؤهل لقيام تفسير صحيح يستند – بعد القرآن الكريم – على أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

• الأصل الثالث : الأخذ بأقوال الصحابة. ويمكن اعتماد هذا الأصل كأول الأصول المستجدة في مناهج تفسير القرآن الكريم ، وقد تمثل القدر الكبير من تقدير التابعيين لأقوال الصحابة في أنهم كانوا يقدمون أقوال الصحابة على أقوالهم هم ، إضافة إلى وجود أكثر من تفسير للتابعيين لم يرض عنه صاحبه إلا بعد عرضه على الصحابي ، فنعلم – على سبيل المثال – أن مجاهد بن جبر – وهو آية في التفسير – قال " عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية وأسأله عنها "231

• الأصل الرابع : الأخذ بالاجتهاد. وهذا أصل اعتمد عليه التابعيون بعد أن استنفدوا البحث عبر الأصول الثلاثة السابقة : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وأقوال الصحابة. واجتهاد التابعيين مقبول عقلاً وشرعاً ، لأنهم " أهل الاجتهاد وهم الذين يعلمون لغة العرب ومناحيهم في القول ، وقد تلقوا التفسير عن الصحابة وسمعوا فهم ما لم يسمعه غيرهم "232

---

231 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص97 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص189 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص487 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص104

232 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص31 ، د. محمد حسين الذهبي :التفسير والمفسرون. ج1 ص99 ،100

• الأصل الخامس : الأخذ بأقوال أهل الكتاب يهوداً أو نصارى. وهذا أصل جديد قعّده التابعيون كأحد أصول التفسير ، ذلك لأن القرآن الكريم " يذكر قصص الأنبياء السابقين والأمم الماضية ذكراً موجزاً ، ولم يتعرض لتفاصيل الأحداث والقصص ، والنفوس تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء ، فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية ودخل في الإسلام أمم من أهل الكتاب الذين يعرفون تفاصيل هذه القصص من التوراة والإنجيل ، صاروا يروون هذا للناس ، وصار الناس يقبلون على سماعها حباً لسماع تفاصيل القصص والأخبار القرآنية ، فدخل في التفسير طائفة من هذه الأخبار التي تعرف بالإسرائيليات ، وأكثر من رويت عنه الإسرائيليات : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن جريج "233

إشكالية الإسرائيليات في التفسير :

في مجال التفسير ، يمكن إطلاق لفظ " الإسرائيليات " على التفسير الذي تأثر – بشكل أو بآخر – بالثقافتين اليهودية والنصرانية ، ما يعني وجود ثقافة نصرانية وافدة دخلت على التفسير ، لكن لما كانت الثقافة اليهودية هي الأشهر والأظهر صار لفظ " الإسرائيليات " عاماً للثقافتين.

والإسرائيليات – بوجه عام – دخلت إلى دائرة التفسير بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن " الرجوع إلى أهل الكتاب كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة – ثم التابعيين – ذلك لأن القرآن فيه الإيجاز ، والتوراة والإنجيل فيهما البسط والإطناب ، فكان المفسر إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد في نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له "234

---

233 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص32 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص183 :201 ، ابن خلدون : المقدمة. ص384

234 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص169

لكن أخذ المفسرين عن اليهود والنصارى كان وفق ضوابط ومعايير محددة... منها :

أن المفسر لم يكن يسأل أهل الكتاب عن كل شيء ، وبالتالي فلم يكن يقبل منهم كل شيء ، إنما الأسئلة لم تكن تتجاوز حدود بيان ما قد يكون مجملاً في القرآن.

أن المفسر كان يتوقف على الحكم فيما أخذه عن اليهود أو النصارى ، ما دام هذا المأخوذ يحتمل الوجهين : الصدق والكذب ، عملاً بالحديث الشريف " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا "235

أن المفسر لم يكن يسأل أهل الكتاب – بأي حال من الأحوال – عن أصول الاعتقاد وأحكامه ، إلا إذا كان في سؤاله استشهاد وتقوية لما جاء في القرآن الكريم.

أن المفسر كان ينكر ما يأخذه عن أهل الكتاب إذا كان هذا المأخوذ يخالف الشريعة الإسلامية من قريب أو بعيد.

.. ومن هنا يمكننا القول بأن أخذ المفسرين من الصحابة والتابعيين عن أهل الكتاب " لم يخرج بهم من دائرة الجواز التي حدها الرسول ، ولم يخرج بهم عن الإباحة التي فهموها من قوله عليه الصلاة والسلام " بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "236

وحديثا الرسول السابقان يمكن فهمها على أن الأول الذي أمر المسلمين ألاّ يصدقوا أو يكذبوا أهل الكتاب ، يمكن فهمه على أن المراد منه " التوقف فيما تحدث به أهل الكتاب مما يكون محتملاً للصدق والكذب ، لأنه ربما كان صدقاً فيكذبونه أو كذباً فيصدقونه ، فيقعون بذلك في

---

235 – أبو عمر يوسف بن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله. تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان. المكتبة السلفية. ج2 ص51 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص169

236 – ابن عبد البر : جامع البيان العلم وفضله. ج2 ص50 ، عبد الرحمن محمد بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج3 ص366 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص169 :171

الحرج ، أما ما خالف شرعنا فنحن في حل من تكذيبه ، وأما ما وافق شرعنا فنحن في حل من تصديقه "237

وأما الحديث الثاني الذي يبيح الأخذ عن أهل الكتاب فيمكن فهمه على أن معناه " حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم "238

خصائص تفسير التابعين :

امتاز تفسير التابعيين بمجموعة ميزات... لعل أهمها :

التمسك بوحدة الرأي إزاء شواهد الآيات ، بمعنى استمرار أدوات التفسير من المأثور ، والتمسك بالمنهج النقلي ، مع الحرص على مراعاة المعنى العام في إطار ثابت ، ولو تجاوز هذا التمسك ما تستحقه ألفاظ القرآن الكريم من الدلالة والبيان 239

دخول الإسرائيليات إلى كتب التفسير ، نقصد بـ " الإسرائيليات " المفاهيم اليهودية والنصرانية على حد سواء ، هذا الأمر تم " لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام ، كان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار مالا يتصل بالأحكام الشرعية كأخبار الخليقة وأسرار الوجود وبدء الكائنات ، كثير من القصص ، كانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن الكريم من أحداث يهودية أو نصرانية ، تساهل التابعيون فمزجوا في التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحر أو نقد "240

التوسع في تفسير الآيات التي سبق تفسيرها ، تفسير ما لم يفسّر من قبل ، لأن التابعيين في تفسيرهم وجدوا أن ما نقل عن الرسول والصحابة من التفسير " لم يتناول

---

237 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص172 ، عبد الرحمن العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص345

238 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص172 :201

239 – د. عبد الستار الراوي : العقل والحرية. ص 70

240 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص130 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص32

جميع آيات القرآن ، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم ، ثم تزايد هذا الغموض – على تدرج – كلما بعد الناس عن عصر النبي وعصر والصحابة ، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعيين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص ، فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض ، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعاً ، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول ، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن ، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث "241

استمرار آلية التلقي والرواية ، رغم تقدم وتعدد أدوات التفسير وتعدد أهدافه ، لكن هذه الآلية – آلية التلقي والرواية – صُبغت بصبغة محددة أقل شمولية مما كانت على عهد النبي وعهد الصحابة ؛ بمعنى " أن التلقي لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، بل كان تلقياً ورواية غلب عليهما طابع الاختصاص : فأهل كل عصر يعنون – بوجه خاص – بالتلقي والرواية عن إمام عصرهم ؛ فالمكيون عن ابن عباس ، والمدنيون عن أبي ، والعراقيون عن ابن مسعود "242

بداية ظهور الخلافات التفسيرية وزيادتها – بطبيعة الحال – عما كانت عليه في عهد الصحابة ، ذلك لأن التابعيين " تناولوا ما اشتمل عليه تفسيرهم وأضافوا إليه آراءهم حسب اجتهادهم ، ومن ثم زادت الأقوال والتفسيرات في الآية الواحدة "243

بداية ظهور الخلافات المذهبية ، لأن بعض التفسيرات " ظهرت وهي تحمل في طياتها هذه المذاهب ، فنجد مثلاً قتادة بن دعامة السدوسي ينسب إلى الخوض في

---

241 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص99 ،100 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص32

242 – المرجعان السابقان : على التوالي. الأول. ج1 ص131 ، الثاني. ص32

243 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص33

القضاء والقدر ويتهم بأنه قدري ، ولا شك أن هذا أثّر على تفسيره ، ولهذا كان يتحرج بعض الناس من الرواية عنه. ونجد الحسن البصري قد فسّر القرآن على إثبات القدر ، ويكفر من يكذب به "244

المرحلة الرابعة : مرحلة التفسير في عهد التدوين :

المرحلة الرابعة من المراحل التي مر بها تفسير القرآن الكريم تقترن – في أغلب المصادر – بظهور التدوين ، وذلك في عهد بني أمية وأول عهد بني العبّاس. ومن المعروف أن علم التفسير مر بعدة مراحل توثيقية إلى أن بلغ مرحلة التدوين ، بعد مراحل من النقل الشفاهي / التلقيني ، ذلك لأن علم التفسير في بدايات ظهوره كان علماً مستقلاً وكان الأخذ به يتم عن طريق الرواية / التلقين ، حتى لو قلنا بوجود تدوين في عصور التفسير الأولى ، فإنه – في الغالب الأعم – كان تدويناً ذا نمط بسيط غير مركب وغير دقيق ، لأن الغالب عليه كان الرواية.

ويمكن تلمس البدايات الأولى للتدوين في مطلع القرن الثاني الهجري ، وربما نهايات القرن الأول الهجري ، أي ما بين نهاية عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين ، وكانت أولى محاولات التدوين هي تدوين الأحاديث النبوية ، ما جعل البعض يدرج علم التفسير ضمن علوم الحديث245 ،

---

244 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص131 ، عبد العلي محمد بن نظام الدين : فواتح الرحموت لشرح مسلّم الثبوت. بهامش المستصفى للغزالي. صورة عن نسخة المطبعة الأميرية. مطبعة الحلبي. مصر 1322هـ ط1 ج2 مواضع مختلفة ، وللمزيد حول رأي الحسن البصري في هذه الجزئية. انظر انظر : الجاحظ : البيان والتبيين. دار الكتب الحديثة ج2 ص88 ، ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء الحديث. مكتبة المتنبي. مصر. ص33

245 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص54 :57 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص141 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص35

وأما بعد ذلك فيمكننا بيان مراحل تدوين التفسير فيما يلي :

• المرحلة الأولى : هذه المرحلة تم فيها تدوين التفسير على اعتباره باباً من أبواب الحديث ، شأنه في ذلك شأن أبواب الحديث الأخرى : كباب الحج وباب الزكاة وباب الصلاة وباب الطهارة... وما إلى ذلك ، ما يعني أن التفسير في هذه المرحلة لم يعتبر علماً قائماً بذاته بحيث نجد فيه مؤلفات تفسير القرآن الكريم سورة سورة وآية آية246 ، وللقائلين بهذا الرأي أدلتهم التي نذكر منها :

1. كان أغلب القائمين على التفسير من رجال الرواية والحديث والإسناد ، ففي هذه المرحلة كان لا يوجد " تخصص للعلماء من الصحابة والتابعيين ، ونادراً ما نرى فيهم الذي يروي الحديث ولا يتكلم في التفسير والأحكام والفتوى ولا يروى الحديث أو لا يفسر ، أو الذي يفسر القرآن ويتجنب رواية الحديث "247

2. كل كتب الأحاديث الصحاح نجدها تفرد باباً من أبوابها يختص بالتفسير المأخوذ عن الرسول ، ما يدل على أن أحد مصادر التفسير حديث الرسول نفسه ، بل هو أهم هذه المصادر ، لكن هذا " لا يعني أن التفسير مقتصر على ما روي عن الرسول ، لأن الثابت أن الرسول لم يفسر جميع القرآن الكريم "248

3. أن أشهر رجال التفسير وقتها كانوا من أعلام الرواية والإسناد ، فكان " جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث ، ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد ، وجميع أو أكثر ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسنداً إليهم "249

---

246 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص141

247 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص55 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص141

248 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي.

249 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص141

ولعل من أشهر من دون التفسير في هذه المرحلة ، على أنه باب من أبواب الحديث :

يزيد بن هارون... المتوفى سنة 117 هجرية.

شعبة بن الحجاج... المتوفى سنة 160 هجرية.

وكيع بن الجراح... المتوفى سنة 197 هجرية.

سفيان بن عيينة... المتوفى سنة 198 هجرية.

روح بن عبادة البصري... المتوفى سنة 205 هجرية.

عبد الرزاق بن همام... المتوفى سنة 211 هجرية.

آدم بن أبي إياس... المتوفى سنة 220 هجرية.

عبد بن حميد... المتوفى سنة 249 هجرية 250.

وأكثر ما نقل عن هؤلاء لم يكن مجرداً من الإسناد ، بل " إن جميع ما نقله هؤلاء – أو أكثره – عن أسلافهم من أئمة الحديث نقلوه مسنداً إليهم "251

كما أن هؤلاء الناقلين كانوا يعتبرون التفاسير التي ينقلونها باباً من أبواب الحديث ، إضافة إلى أن التفاسير المنقولة عن هؤلاء الأعلام لم تكن – فقط – عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل ضموا إليها ما وجدوه من تفاسير الصحابة والتابعيين .

• المرحلة الثانية : وفيها بدأ التفسير يظهر كعلم مستقل قائم بذاته ، ففُصل التفسير – في هذه المرحلة – عن الحديث ، وبدأت التفاسير تظهر مفسرةً لكل آية ، ومرتبة على حسب ترتيب المصحف.

ويمكن اعتبار عبد الملك بن جريح أول من صنف وألّف في التفسير في هذه المرحلة من مراحل التفسير252

---

250 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص190 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص141 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص35

251 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص141 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص35 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص55

ومن أعلام هذه المرحلة :
ابن ماجة... المتوفى سنة 273 هجرية.
أبو جرير الطبري... المتوفى سنة 310 هجرية.
أبو بكر النيسابوري... المتوفى سنة 318 هجرية.
ابن أبي حاتم... المتوفى سنة 327 هجرية.
أبو الشيخ بن حيان... المتوفى سنة 369 هجرية.
أبو بكر بن مردوية... المتوفى سنة 410 هجرية 253.

وكل التفاسير التي تمت على أيدي هؤلاء كانت " مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة والتابعيين وتابع التابعيين ، وليس فيها شيء من التفسير أكثر من التفسير بالمأثور ،اللهم إلا ابن جرير الطبري فإنه ذكر الأقوال ثم وجّهها ، ورجح بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه الحاجة ، واستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية "254 وهذا يعني أن " التفسير في هذه المرحلة قام على أساس الإسناد المتصل إلى صاحب التفسير المروي عنه 255"

ويمكن – في هذه المرحلة – القول بأن القائمين عليها تساهلوا في بعض الأمور التي بدت صغيرة ، لكنها مع تطور علم التفسير أصبحت مدخلاً لتساهل أكبر ، فهؤلاء " لم يكن لهم عناية بالنقد وتحري الصحة في رواية الحديث في التفسير ، بل إن بعضهم ذكر ما روي في كل آية من صحيح

---

252 – ابن خلكان : وفيات الأعيان. تحقيق. محمد محي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ج2 ص338

253 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص141 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص36

254 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص142 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص190 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص36

255 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص36

وسقيم ولم يتحر الصحة كابن جريج مثلاً ، ويرجع السبب في ذلك إلى ذكرهم للإسناد ، فهم يكتفون بذكر الإسناد عن بيان درجة المروي على حد قول القائل : من أسند فقد أبرأ ذمته "256 وهذا ما جعل السيوطي ينقد هذه المرحلة من خلال نقده لبعض أعلامها257

كما أن هذه المرحلة كانت لها خاصية أساس ،وقد تمثلت في اتساع رواية الإسرائيليات ، حيث دوّن الكثير منها ضمن التفسير258

• المرحلة الثالثة : لعل أهم سمات هذه المرحلة بدايات إغفال " الأسانيد " ما فتح المجال واسعاً لاختلاط الصحيح بالخطأ ، ذلك لأن بعض المفسرين " نقلوا الآثار المروية عن السلف دون أن ينسبوها إلى قائلها ، فاختلط الصحيح بالعليل ، وأصبح الناظر في هذه الكتب يظن أن كل ما فيها صحيح ، فنقله كثير من المتأخرين في تفاسيرهم ونقلوا ما جاء في هذه الكتب من الإسرائيليات على أنها حقائق ثابتة ، وكان هذا مبدأ ظهور خطر الوضع والإسرائيليات في التفسير "259

• المرحلة الرابعة : تمثل هذه المرحلة آخر مراحل التدوين – بوجه عام – حيث لم يعد التفسير قاصراً على تدوين ما نقل عن الرسول أو الصحابة والتابعيين ، إنما بدأ ظهور ما يعرف بـ " التفسير بالرأي " ، وذلك نتيجة – طبيعية – لنشأة الفرق والملل والمذاهب في الإسلام ، فأصبح " أصحاب كل مذهب يتجهون إلى آيات القرآن

---

256 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص36

257 – انظر في تفصيل ذلك. جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص187 وما بعدها

258 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في التفسير ومناهجه. ص37

259 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص145 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص190 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص37

ويفسرونها حسب ما يوافق مذاهبهم ومعتقداتهم ، كما اعتنى كل أرباب العلوم بما يوافق علومهم : فالفقيه يكاد يسرد فيه الفقه ، والنحوي يكاد أن يجعل همه الإعراب ، وصاحب العلوم العقلية يملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة "260

وهذا كله جعل بعض المشتغلين بعلوم القرآن يكتبون " في هذه المرحلة نجد أن كل بارع في فن يقتصر غالباً في تفسيره على الفن الذي برع فيه ، فالمبرز في العلوم العقلية كالفخر الرازي ، أغرم باستعراض أقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها في تفسيره ، والمبرز في الفقه كالقرطبي ، أولع بتقرير الأدلة للفروع الفقهية والرد على المخالفين ، والمبرز في النحو كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر ، يهتم أعظم الاهتمام بالإعراب ووجوهه ، ونقل قواعد النحو وفروعها ، وأصحاب المذاهب المتطرفة والنحل الضالة ، يقصدون إلى تأويل الآيات على ما يروّج مذاهبهم في التطرف والضلال ، والإخباريون يعنيهم أن يستقصوا القصص والأخبار عمن سلف ، صحيحة كانت أو باطلة ، والإشاريون وأرباب التصوف تهمهم ناحية الترغيب والترهيب والزهد والقناعة والرضا ، فيفسرون القرآن بما يوافق مشاربهم وأذواقهم ، وعلى الإجمال نرى كل نابغة في فن أو داعية إلى مذهب أو فكرة ، يجتهد في تفسير الآيات بما يوافق فنه ،ويلائم مشربه ،ويناصر مذهبه"261

****

---

260 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص38 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص189 ،190

261 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص500 ،501 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص146 :148

obeikandl.com

الفصل الثاني
التفسير بالأثر

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف التفسير بالأثر :

لاشك أن خطاب القرآن الكريم للمسلمين بدأ منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي عليه ، وأن هذا الخطاب اكتملت مفرداته بموته عليه الصلاة والسلام. ولهذا جاء قوله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً "[262] إعلاناً بثلاثة أمور : إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، والرضى بالإسلام ديناً كاملاً صحيحاً ، لا يحق لمخلوق أن يزيد فيه أو ينقص منه

---

262 – سورة المائدة : آية رقم 3

شيئاً. هذه واحدة... وأخرى أنه مما لاشك فيه أن المجتمع المسلم لم تتوقف حاجاته بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنها حاجات متجددة / متنوعة بتجدد المجتمع نفسه وبتنوع المجتمعات الإسلامية ، لهذا كانت حركة المجتمع المسلم حركة دائمة الصيرورة ، ما يعني تجدد الأسئلة وتعدد المشكلات ، وهذه تحتاج إلى إجابات وتلك تحتاج إلى حلول. ولقد كان القرآن الكريم – ولا زال – محور اهتمام المفكر المسلم ، ونعلم أنه بنزول القرآن الكريم بدأ " يزعزع " عقائد فاسدة كانت تهيمن على عقول من نزل القرآن الكريم مخاطباً لهم ، ليقيم مكانها عقيدته الصحيحة ، كما أنه – القرآن الكريم – بدأ ينفّر من قيم / سلوكيات تمثل " جاهلية " قيمية وأخلاقية ، ليقنع معتنقيه بقيم / سلوكيات جديدة ، ستثبت أنها القيم الأليق بالإنسان بوجه عام ، وكان المرجع الوحيد في قياس صواب العقيدة التي جاء الإسلام بها وفساد ما عداها ، وفي قياس صحة القيم / السلوكيات التي يدعو إليها الإسلام... كان المرجع الوحيد في ذلك كله هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي بيّن وبلغ ، انطلاقاً من فهمه لوظيفته " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون "263 و " يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين "264

وكان الرسول يفسر القرآن الكريم – أو أكثره – ومن بعده الصحابة الذين حضروا نزول القرآن الكريم وعلموا ظروفه وسمعوا من الرسول ما لم يسمعه غيرهم ، هذا... وقد نقل المسلمون شروح الرسول ، وشروح الصحابة من بعده ، فكوّن هذا ومثله ما أطلق عليه " التفسير بالمأثور ".

وبالتالي يمكننا تعريف التفسير بالمأثور بأنه " التفسير الذي يعتمد على صحيح المعقول والآثار الواردة في الآية ،

---

263 – سورة النحل : آية رقم 44

264 – سورة المائدة : آية رقم 67

فيذكرها ولا يجتهد في بيان معنى غير ذلك ، ويتوقف عما لا طائل تحته ، ولا فائدة في معرفته ، ما لم يرد فيه نقل صحيح "265

وقد بينت دراسات علوم القرآن أن التفسير بالمأثور يشمل ما جاء في القرآن الكريم نفسه من التبيين والتفصيل لبعض آيات القرآن من خلال معارضتها بآيات أخرى ، وهذا ما يسمى " تفسير القرآن بالقرآن " وكذلك يشمل هذا النوع من التفسير كل ما تم نقله عن الرسول من الأقوال والأفعال والتقرير ، إضافة إلى ما نقل عن الصحابة ، وهذا كله لا نجد اختلافاً فيه بين تعريف وآخر ، إلا أن بعض الدارسين يضيف إلى ما أخذ من القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما نقل عن التابعيين ، على حين نجد بعض الدارسين لا يضيف ما نقل عن التابعيين ضمن التفسير بالمأثور266 ولهذا جاء في بيان معنى التفسير بالمأثور " هو ما يشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته وما نقل عن الرسول ، وما نقل عن الصحابة ، وما نقل عن التابعيين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم "267 وأضاف آخرون " نصاً ولفظاً "268

والعلة في كون المنقول عن التابعيين تفسيراً بالمأثور " أن كتب التفسير المأثور كتفسير ابن جرير وغيره ، لم تقتصر على ذكر ما روي عن النبي وما ورد عن الصحابة ، بل ضمت إلى ذلك ما نقل عن التابعيين في التفسير "269

وأما تعريف الأثر نفسه فهو " ما روي عن الرسول ، وما روي عن الصحابة أو عن التابعيين ، موقوفاً عليهم أو

---

265 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص71

266 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص481

267 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص152

268 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص72 ، أحمد أمين : فجر الإسلام. ص199 وما بعدها

269 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص152

مرفوعاً ، وهذا عند أهل الحديث ، فمنهم من يجعله مرادفاً للحديث فيقصره على ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم "270

وحقيقة الأمر ، فإن الصحابة لم يكونوا – كلهم – من المتكلمين في تفسير القرآن ، حيث كان منهم من يتحرج من رواية الحديث ويتصدر للفتيا والأحكام ، ومنهم من كان يتحرج من الفتيا ويتصدر لتفسير القرآن الكريم ، ومنهم من كان لا يتكلم في القرآن الكريم ويروي الحديث ، على ثقة منه بأنه مأجور على ذلك ، وأنه أصاب الحق ، لأنه كان يرى في الكلام في القرآن الكريم شهادة على الله تعالى بأنه – تعالى – قد أراد بلفظ ما معنى ما271

والمثال على من تحرجوا من تفسير القرآن الكريم ، في الوقت الذي أكثروا فيه من رواية الحديث : عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – الذي كان " يعيب على عبد الله بن عباس جرأته على القرآن الكريم "272 حتى قال السيوطي في ذلك " إن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، فقال اذهب إلى ابن عباس فاسأله ثم تعال أخبرني. فذهب فسأله فقال كانت السموات رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات. فرجع إلى ابن عمر فأخبره فقال : قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً "273 ومع ذلك فقد كان ابن عمر من المكثرين في رواية الحديث.

---

270 – ابن حجر : نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر. مطبعة الحلبي. مصر 1379هـ/1960م ج2 ص20 وما بعدها

271 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص173

272 – أحمد أمين : فجر الإسلام. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة 1978م ط12 ص148 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي . ص70 ،71

273 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص187

والمثال على من تحرجوا من رواية الحديث ، في الوقت الذي أكثروا فيه من التفسير : عبد الله بن مسعود ، الذي يعد المؤسس الأول لمدرسة التفسير بالكوفة ، وكان يتجنب رواية الأحاديث عن الرسول حتى إنه " لم يقل يوماً قال رسول الله. وذات مرة جرى على لسانه فقال قال رسول الله ، فعلاه كرب حتى جعل يعرق ثم قال إن شاء الله ذا أو دون ذا أو نحو ذا "274 ومع ذلك فقد كان عبد الله بن مسعود حريصاً على تفسير القرآن الكريم275 يبذل الكثير في فهمه وبيانه ، حتى قال هو عن نفسه " والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته "276 وقال عنه غيره " هو عالم بالقرآن والسنة ،وكفى بذلك علماً "277

مقومات التفسير بالأثر : الحصر والتقويم :

يشير البعض إلى أن التفسير بالأثر هو أفضل أنواع التفسير ، ذلك لأنه – التفسير بالأثر – تأسس على مقومات لها من الصحة والثبوت والقبول ما ليس لمقومات أي تفسير آخر. ويمكننا حصر هذه المقومات التي قام عليها التفسير بالأثر في : القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وأقوال الصحابة ، وما نقل عن التابعيين278

أما الأصلان الأول والثاني : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ؛ فالأول منهما لاشك في قبوله والأخذ به

---

274 – محمد الرامهرمزي : المحدث الفاصل بين الراوي والواعي. تحقيق محمد عجاج الخطيب. دار الفكر. بيروت 1391هـ/1971م ص550

275 – عبد الرحمن قاسم : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص347

276 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص187

277 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص483 ، أحمد أمين. فجر الإسلام ص150

278 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص92 وما بعدها

والاعتماد عليه ، لأن الله تعالى" أعلم بمراد نفسه من غيره ، ولأن أصدق الحديث كتاب الله"279

والثاني منهما يجب تقديره لأن " خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، ووظيفته البيان والشرح 280"

وأما الأصلان الثالث والرابع : أقوال الصحابة ، وما نقل عن التابعيين ؛ فالأول منهما يصير مقبولاً كأحد مقومات التفسير بالأثر ، لأن الصحابة هم الذين شاهدوا التنزيل ، وهم أهل اللسان ، ولهم عن غيرهم ميزة معاصرة القرائن ومشاهدة الأحوال ، بما يجعلهم أهلاً لمعرفة مقاصد القرآن الكريم أكثر – بكثير – من غيرهم281 إلا أن هذا الأصل – رواية الصحابة – يظل مرهوناً بقيمة صحة السند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم282

والثاني منهما ظل محل خلاف بين علماء التفسير ، حتى إن بعضهم جعله من أسس التفسير بالمأثور ، لكونه – رواية التابعيين – مأخوذاً عن الصحابة ، وبعضهم – علماء التفسير – جعله غير ذلك ، فصنّفه ضمن التفسير بالرأي 283

---

279 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم للقرآن. ج1 ص481 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص156 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص73 ، د. فهد عبد الرحمن : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص71

280 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص76 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص156 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص76 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص71

281 – أبو عمر يوسف بن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله. ج2 ص38

282 – د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه . ص71 ،72

283 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص481

وفي كل الأحوال ، فإن تفسير القرآن الكريم بالأثر – المروي عن الصحابة أو التابعيين – قد " تسرّب إليه الخلل وتطرق إليه الضعف ، إلى حد كاد يفقدنا الثقة بكل ما روي من ذلك "284

ولما كان الضعف في التفسير من أول أسباب الصرف عنه فيجب التعرض لهذا الضعف الذي سرى إلى أكثر كتب التفسير بالمأثور285 حيث نعلم أن الصحابة – كلهم – عدول ثابتة عدالتهم بالكتاب والسنة والإجماع ونعلم – مثلاً – أن أكثر من تكلم منهم في التفسير عبد الله بن عباس ، وعلي بن أبي طالب ، وهذان الاثنان – رضي الله عنهما – روي عنهما الكثير في التفسير ، حتى يمكننا القول بأن كثرة المروي عنهما كانت " أكبر عامل في صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص ، والنقد والتعديل والتجريح "286 ومما يدل على ذلك قول السيوطي عن ابن عباس " قال الشافعي لم يثبت عن ابن عبّاس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث "287

والناظر إلى هذا العدد المذكور في رواية السيوطي يجده " لا يكاد يذكر بجوار ما روي عن ابن عباس في التفسير ، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير النقلي من الروايات المكذوبة المصنوعة "288

هذا عن ابن عباس ، أما علي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – فهو من المبرزين في القضاء والفتوى والتفسير ،

---

284 – المرجع السابق : ج1 ص481 ،482 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص156

285 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص481 ،482

286 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص157

287 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص189

288 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص157 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص483 ،484

حتى تكلم عنه غيره " إنه يعلم كل آية في كتاب الله ، ويعلم أبليل نزلت أم بنهار ، وفي سهل أم في جبل نزلت"289 و " ما من آية من كتاب الله نزلت إلاّ وعلي يعلم فيمن أنزلت وأين أنزلت ، فقد وهبه الله قلباً عقولاً ولساناً سؤلاً "290 لكنه – عليّ – لم يصح عنه في التفسير إلا القليل ، لكثرة الوضع عليه ، وذلك الوضع راجع إلى غلاة الشيعة الذين " أسرفوا في حبه فاختلقوا عليه ما هو برئ منه ، إما ترويجاً لمذهبهم وتدعيماً له ، وإما لظنهم الفاسد أن الإغراق في نسبة الأقوال العلمية إليه يعلي من قدره ويرفع من شأنه العلمي ، والظن أن ما نسب إلى علي من قوله " لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت " لا أصل له ، اللهم إلا في أوهام الشيعة الذين يغالون في حبه ويتجاوزون الحد في مدحه ، ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوضّاع بالكذب عليه ، تلك الناحية هي نسبته إلى بيت النبوة ، ولا شك أن هذه الناحية تكسب الموضوع وتعطيه رواجاً وذيوعاً على ألسنة الناس ،والحق أن كثرة الوضع على علي ، كرم الله وجهه ، أفسدت الكثير من علمه المنقول إلينا "291

من كل هذا يمكننا الكلام عن " الوضع " في التفسير بالأثر ، بناء على أسباب الضعف التي دخلت إلى هذا النوع من التفسير... وهي :

أولاً : الوضع في التفسير :

سبق وعرفنا أن التفسير بالأثر يقـوم على أصول أربعة : القرآن الكريم ، والسنة النبوية. وكلاهما لا خلاف عليه بين مسلم ومسلم ، وفيما يخص السنة النبوية المطهرة فلا خلاف عليها إذا كانت الأحاديث مرفوعة إلى النبي صلى

---

289 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص187

290 – المصدر السابق : نفس الموضع

291 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص90 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص486 ،487 ،490

الله عليه وسلم ، وأقوال الصحابة والتابعيين ، وكلاهما قد تطرق إليه الضعف نتيجة لازمة لكثرة الوضع فيه.

وهذه الأمر – الوضع – قاصر على التفسير بالأثر دون التفسير بالرأي ، ذلك لأن التفسير بالرأي " لم يكن محتاجاً للوضع كالتفسير بالمأثور ، ما جعل الوضع من نقاط الضعف في التفسير بالمأثور ، وهو الذي قلّل الثقة فيه "292

والوضع في التفسير بالأثر يقصد به اعتماد المفسر على أحاديث ضعيفة ، وهي تلك الأحاديث المختلقة اختلاقاً على رسول الله والموضوعة وضعاً ، وهذا كله يجعل الحديث الموضوع غير مقبول الرواية ، إلا إذا بيّن راويه أنه موضوع 293

- تاريخ الوضع :

فيما يخص التأريخ لبدايات الوضع الذي نحن بصدده يمكننا القول بأن الوضع في التفسير " نشأ مع نشأة الوضع في الحديث ، لأنهما كانا أول الأمر مزيجاً لا يستقل أحدهما عن الآخر ، فكما أننا نجد في الحديث ، الصحيح والحسن والضعيف ، وفي رواته من هو موثوق به ، ومن هو مشكوك فيه (تُكُلّمَ فيه) ، ومن عُرف بالوضع ، نجد مثل ذلك فيما روي من التفسير ، ومن روى من المفسرين 294"

وإذا كنا نجد أن الوضع في التفسير بدأت محاولاته الأولى في النصف الأول من القرن الأول الهجري ، أي بين نهاية خلافة عثمان بن عفان وبداية خلافة علي بن أبي

---

292 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص109

293 – الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن حسين العراقي : التقييد والإيضاح. شرح مقدمة ابن الصلاح. تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان. المكتبة السلفية. السعودية. ص130

294 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص157 ،158 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور في التفسير في العصر العباسي. ص109

طالب ، إلا أنه بالإمكان الكلام عن محاولات أسبق للوضع في عهد الصحابة ، ونجد نصوصاً تدل على ذلك... منها :

1. قول أنس بن مالك : لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة ، وقد ضُيّعت.
2. قول الحسن البصري : لو خرج عليكم أصحاب الرسول ما عرفوا منكم إلا قبلتكم.
3. قول عروة بن الزبير لما عُوتب لاتخاذه قصراً بعيداً عن الناس : إني رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية ، والفاحشة في فجاجكم عالية ، وكان هنالك عما أنتم فيه عافية ، وما بقى إنما بقى شامت لنكبة أو حاسد على نعمة.
4. قول ربيعة بن عبد الرحمن : المصيبة أنه قد استُفتي من لا علم له ، ودخل في الإسلام أمر عظيم ، ولبعض من يُفتي ههنا أحق بالسجن من السراق 295

ومع خطورة هذا الأمر – الوضع أيام الصحابة – إلا أن أثاره كانت محدودة ، لأن الصحابة كانوا يقاومونه أولاً بأول ويظهرونه ، ما يقلل من خطورته وأثره.

- أسباب الوضع :

ليس هناك سبب واحد بعينه يمكننا إرجاع ظاهرة الوضع في التفسير إليه ، سواء بداياته أو انتشاره حتى اصبح ظاهرة ، وأصبح الكثرة الغالبة في كتب التفسير بالأثر ، لكننا – هنا – سنحاول رصد مجموعة أسباب يمكن – إليها جميعاً – إرجاع الوضع في التفسير بالأثر :

1. أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، الذين تظاهروا بالإسلام ، فدخلوا بين أبنائه وكان هدفهم الأهم إيصال الأخبار المحرّفة إلى الكتب الإسلامية ، ما سيترك أثره على المسلمين تشويهاً للعقيدة وبلبلة للأفكار.
2. ظهور الحزبية والطائفية بين المسلمين ، ما يعني تفرقهم إلى أحزاب وطوائف وشيع ، وقد حاول كل فريق

---

295 – في هذه الأدلة وغيرها. انظر أبو عمر يوسف بن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله. ج2 ص245 وما بعدها

من هؤلاء أن يؤيد موقفه بأشياء من القرآن الكريم والسنة النبوية ، فتقبلها أفراد هذا الفريق ، وهذا يقابله – بالضرورة – تأويل آيات القرآن الكريم بما يتفق مع مذهب هذا الفريق أو ذلك. وهكذا نجد الشيعة تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، أقوالاً في التفسير تشهد لمذهبهم ، ونجد الخوارج تنتحل أقوالاً في التفسير تأييداً لمذهبهم وتنسبها إلى النبي ، أو لأحد الصحابة.

وواضح هنا أن قصد كل فريق من هؤلاء من نسبة هذه " الموضوعات " إلى النبي ، أو إلى أحد من الصحابة هو " الترويج للمروي ، والإمعان في التدليس ، فإن نسبة المروي إلى الرسو ، أو إلى أحد الصحابة ، تورث المروي ثقة وقبولاً لا يوجد منهما شيء عندما ينسب المروي لغير النبي ، أو لغير الصحابي "296

فعلى سبيل المثال ، أوّلت الشيعة قول الله تعالى " إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون"297 خصصوا لهذه الآية الكريمة حديثاً " أن علياً كرم الله وجهه تصدق بخاتمه وهو في الصلاة " وهذا الحديث متفق على أنه موضوع 298

3. محاولة البعض من المسلمين ترغيب المسلمين في القرآن ، فكتبوا أحاديث نسبوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كنوع من الترغيب ، كمن وضع أحاديث تبيّن فضل كل سورة من سور القرآن الكريم على حدة ، وقال تبريراً لذلك : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن الكريم ،

---

296 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص158 ،159 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص491

297 – سورة المائدة : آية رقم 55

298 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص84 ،85 ،89 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في العصر العباسي. ص111 ،112

واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق ، فوضعت هذه الأحاديث حسبة "*299*

4. إهمال ذكر الإسناد والاكتفاء بذكر المتن ، ما استتبعه اختلاط الصحيح بغير الصحيح ، وهذا معناه " نقل كثير من الأقوال المعزوة إلى الصحابة أو التابعيين من غير إسناد ولا تحر ، ما أدى إلى التباس الحق بالباطل. زد على ذلك أن من يرى رأياً صار يعتمده دون أن يذكر له سنداً ، ثم يجيء بعده فينقله على اعتبار أن له أصلاً ، ولا يكلف نفسه البحث عن أصل الرواية ، ولا من يرجع إليه هذا القول "*300*

- رجال الوضع :

ذكر أن أكثر من اشتهر بالوضع في التفسير هو مقاتل بن سليمان ، فقالوا عنه " مقاتل بن سليمان مشهور بالوضع ، وتفسيره فيه آراء تفسيرية لا بأس بها ، ولكن الكثير من هذه الآراء يضع لها أسانيد ، محاولاً إثبات صحتها وقوة ما جاء فيها ، عن طريق نسبتها إلى أحد أئمة التفسير من الصحابة والتابعيين "301

ثانياً : الإسرائيليات :

من الناحية العلمية ، يمكننا القول بأن دخول الإسرائيليات في كتب التفسير بالأثر ، جاء متقدماً في عهد الصحابة أنفسهم ، فعلوم القرآن تبين لنا اتفاق القرآن – من ناحية – مع التوراة والإنجيل – من ناحية ثانية – مع

---

299 – زين الدين العراقي : التقييد والإيضاح. ص132 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص72 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص84 ، الزركشي : البرهان في علوم القرآن. تخريج مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت 1408هـ/1988م ط1 ج1 ص513

300 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص491

301 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص113، 114

فارق بينهما : هو إيجاز القرآن الكريم في سرد قصصه ، وإطناب التوراة والإنجيل في هذا السرد 302

فمثلاً " قصة آدم عليه السلام ، وردت في التوراة ، كما وردت في القرآن في مواضع كثيرة ، أطولها ما ورد في سورة البقرة ، وما ورد في سورة الأعراف. وبالنظر في هذه الآيات الكريمة من السورتين نجد أن القرآن الكريم لم يتعرض لمكان الجنة ولا لنوع الشجرة التي نهي آدم وزوجه عن الأكل منها ، ولا بيّن الحيوان الذي تقمصه الشيطان فدخل الجنة ليزل آدم وزوجه ، كما لم يتعرض للبقعة التي هبط إليها آدم وزوجه وأقام بها بعد خروجهما من الجنة... إلى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفصيل وتوضيح ، لكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه ، فأبانت أن الجنة في عدن شرقاً ، وأن الشجرة التي نُهيا عنها كانت في وسط الجنة وأنها شجرة الحياة ، وأنها شجرة معرفة الخير والشر ، وأن الذي خاطب حواء في الجنة هو الحية ، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي تقمصها إبليس ، بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب ، وانتقم من حواء بتعبها هي ونسلها في حبلها303

---

302 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص123

303 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص167 ،168 ، وهذه النقول عن التوراة والإنجيل ، فيها بعدٌ يضاد الجانب العلمي وآخر يضاد الجانب الشرعي ممثلاً في آيات القرآن الكريم : أما ما يضاد الجانب العلمي ، فنحن لا نعلم – على سبيل المثال – هل كانت الحية تمشي على أرجل ثم صارت تسعى على بطنها ، علاوة على التساؤل عن بقية الزواحف غير الحية !! أما ما يضاد القرآن الكريم كدليل شرعي... فإن القارئ لبعض آياته الكريمة يجد أن النص القرآني في عرضه لكيفية مشي المخلوقات إنما يأتي في سياق التدليل على قدرة الله غير المحدودة ، خاصة وأن الآيات – موضوع القراءة – تنتهي بالتأكيد على ذلك " والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير " سورة النور : آية قم 45 ، وتفسير

وأيضاً " قصة عيسى ومريم ، ومعجزات عيسى ، عليه السلام ، كل ذلك جاء في القرآن في أسلوب موجز يقتصر على موضع العظة ومكان العبرة ؛ فلم يتعرض القرآن الكريم لنسب عيسى مفصلاً ، ولا لكيفية ولادته ، ولا للمكان الذي ولد فيه ، ولا لذكر الشخص الذي قذفت به مريم ، كما لم يتعرض لنوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء ، ولحوادث جزئية من إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى. لكن الإنجيل تعرض لنسب عيسى ، ولكيفية ولادة مريم له ، ولذكر الشخص الذي قذفت به مريم ، ولنوع الطعام الذي نزلت به مائدة السماء ، ولحوادث جزئية من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ولكثير من مثل هذا التفصيل الموسع الذي أعرض عنه القرآن الكريم فلم يذكره لنا "304

هذه الآية الكريمة " قدم الزاحف على الماشي على رجلين ، وهو على الماشي على أربع ، والاستدلال بها باختلاف صورها وطبائعها وقواها على وجود الصانع وصفات كماله ، من حيث إن الآية الكريمة مسوقة لبيان قدرة الله تعالى ، ومشي من يمشي بغير آلة المشي أثبت لها ، ثم مشي من يمشي على رجلين أثبت لها بالنسبة إلى مشي من يمشي على أربع ، إذ اختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأشكالها وأعضائها وطبائعها ومقادير أبدانها وأعمارها ، لابد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر قادر على كل ما يشاء " شيخ زادة : الحاشية على تفسير البيضاوي. ج3 ص434 ، إضافة إلى أن الإسلام يقيم مبادئ المسؤولية الفردية أساساً للحساب والمساءلة ، لقوله تعالى في سورة الأنعام : الآية رقم 164 " قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون " ولذلك جاء القول " يجب على المفسر أن يكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة ، ناقداً إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن ويتفق مع العقل والنقل " د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون.ج1 ص181

304 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص168

هذا كله كان مبدأ دخول تفسيرات النصوص القرآنية بالاستعانة بكتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، تلك الاستعانة التي أطلق على مادتها " الإسرائيليات ".

- التعريف :

الإسرائيليات هي " كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما "305

وقد ضمت الإسرائيليات – اصطلاحاً – كل ما وفد على تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، حتى شملت القصص والأساطير التي دخلت الحديث والتفسير ، وهي غريبة عليه ، وإن لم يكن مصدرها يهودياً أو نصرانياً 306"

- الأسباب :

دخلت الإسرائيليات إلى كتب التفسير بالمأثور – خاصة – لعدة عوامل ، توافرت كلها فمثلت جواً مناسباً لأن تكون الإسرائيليات عنصراً – قل أو كثر – من عناصر وجود التفسير بالأثر :

1. عدم المنع من الرواية عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، حيث ورد قول الرسول صلى الله عليه وسلم " بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "307 وقوله

---

305 – د. محمد حسين الذهبي : الإسرائيليات في التفسير والحديث. مجمع البحوث الإسلامية. مصر 1391هـ/1971م ص20

306 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص121

307 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص95 ، ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله. ج2 ص50 ، عبد الرحمن العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج3 ص366 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص169 :171

" حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم "308

2. ما قاله ابن خلدون في هذا الأمر من أن العرب " لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية من أسباب المكونات ، وبدء الخليقة وأسباب الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك ، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم من أمثال هذه الأغراض كأخبار موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب العمل بها ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك ، وملئوا الكتب بهذه المنقولات ، وأصلها عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه في ذلك ، إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة ، فتلقيت بالقبول من يومئذ 309"

ومن النص السابق يتبين لنا أمران :

أحدهما : غلبة البداوة والأمية على العرب ، ما دفعهم إلى الأخذ عن أهل الكتاب الذين كانوا أسبق – أو أكثر – منهم علماً ومعرفة.

---

308 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص172 :201

309 – ابن خلدون : المقدمة. ص439 ،440 ، أحمد أمين : فجر الإسلام. ص202

الثاني :الاطمئنان النفسي لدى المسلمين بأن ما ينقلونه من معارف عن طريق اليهود والنصارى لا يمس العقائد ولا الأحكام ، ما يجعل التساهل من قبل المسلمين – المفسرين – في قبول هذه المعارف ، من الأمور التي لا حرج فيها على المتلقي.

- الأثر في التفسير :

نجد في الدراسات عن الإسرائيليات في التفسير ، أن رواية الإسرائيليات خرجت عن حدود كانت – بدرجة ما – مقبولة ، وصار الأخذ بها ذا طابع مشوه ، ذلك لكثرة القصص الخرافية التي دخلت التفسير بفضل الإسرائيليات ، ما جعل الكثير يعرض عن التفاسير التي حملت – بشكل أو بآخر – الإسرائيليات ، بل أصبحت هذه التفاسير غير ذات قيمة علمية.

والغريب في الأمر أن بعض ما اشتهر من التفاسير – كالطبري مثلاً – نراه " لم يسلم من قسم من الإسرائيليات التي لم ينبه عليها"310 وهذا معناه " أن الأمر لم يقف على ما كان عليه في عهد الصحابة ، بل زاد الرواة فرووا كل ما قيل لهم إنْ صدقاً وإن كذباً ، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالي المخترع ، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها ، لاعتقاده أن الكل في واد واحد ، وفي الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات ذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح ، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التي لا يكاد يصح منها ، إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة"311

- الأقسام :

---

310 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص124 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص181 وما بعدها

311 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص178، 179

قسّم الباحثون الإسرائيليات التي دخلت التفسير بالمأثور أقساماً312 ، وذلك بناء على المقياس الشرعي الإسلامي ، ويمكن إجمال هذه الأقسام في الآتي :

1. ما لا مانع من قبوله. وذلك وفق ضوابط شرعية ، هذا إذا كان الناقل يعلم بأن المنقول " نقل عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، نقلاً صحيحاً ، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر ، فقد جاء هذا الاسم صحيحاً على لسان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده ،وهذا القسم صحيح مقبول "313

2. ما لا مانع من تكذيبه. وذلك إذا أخل بأي ضابط شرعي ، فنعلم كذبه بأن " يناقض ما عرفناه من شرعنا ، أو كان لا يتفق مع العقل ، وهذا لا يصح قبوله ولا روايته 314"

3. ما لا مانع من التوقف فيه. وهو الكائن بين بين ، أو هو من قبيل " المسكوت عنه " فلا هو مما نصدقه ، ولا هو مما نكذبه ، وهذا " نتوقف فيه ،فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته "315

وهذا القسم الأخير لا يعني الموقف السلبي غير الفعّال من قبل المتلقي المسلم ، لكن هذا القسم يندرج تحته كل ما كان الكلام فيه من النوع الذي لا يعود بفائدة سواء على المفسر أو على المتلقي ، بل ولا على الفهم الديني ، ومن ثم السلوك بوجه عام ، ولهذا يجد علماء التفسير – في هذا القسم – الاختلاف كبيراً بين أهل الكتاب ، وبطبيعة الحال فإن هذا الاختلاف سوف ينتقل – بدرجة ما – إلى المفسرين الناقلين عن أهل الكتاب ، ومن

---

312 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص95 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص88

313 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص179

314 – المرجع السابق : نفس الموضع

315 – المرجع السابق : نفس الموضع

أمثلة ذلك " الكلام في أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعصا موسى ؛ من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله تعالى لإبراهيم ، وتعيين بعض البقرة التي ضرب بها قتيل بني إسرائيل ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن ولا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم أو دينهم 316"

ثم إن القسم الأخير يعتبر الأخذ به على أحد طريقتين : طريق الصحابي ، وطريق التابعي :

فأما طريق الصحابي. فبين أن يجزم الصحابي به أو لا يجزم به ، فإن جزم به الصحابي فيعتبر هذا القسم ضمن " ما لا مانع من قبوله " لأنه " لا يعقل أن يكون الصحابي قد أخذه عن أهل الكتاب بعدما علم من نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن تصديقهم "317 وإن لم يجزم به الصحابي فالمسلمون تسكن نفوسهم إليه وإلى قبوله ، ذلك لأن " احتمال أن يكون الصحابي قد سمعه من النبي ، أو ممن سمعه منه أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب ، ولا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلاً بالنسبة لغيرهم من التابعيين ومن يليهم 318"

وأما طريق التابعي فهو " مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا بكذب ، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم ، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك ، أما إن اتفقوا عليه ، فإنه يكون أبعد من أن يكون مسموعاً من

---

316 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون . ج1 ص180 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص95 ،96

317 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص180 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص77

318 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص180

أهل الكتاب ، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به 319"

- **الرواة :**

تكاد علوم القرآن تجمع على أن أغلب ما روي في كتب التفسير من الإسرائيليات يمكن أن يدور حول أربعة أشخاص... هم : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج 320 ، إلا أننا سنعرض – فقط – للأولين ، على اعتبار ما قيل عنهما أوفيهما :

1. عبد الله بن سلام :

هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري ، من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، أسلم وشهد له الرسول بالجنة ، حتى اعتبر عاشر عشرة من المبشرين بها321 وفيه نزل قول الله" قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين"322

وقد اشتهر ابن سلام بين الصحابة بالعلم ، حتى اعتبره البعض ضمن أربعة شملهم العلم والإيمان 323

وفي تقييم ابن سلام يقول الدكتور محمد حسين الذهبي " وليس عجيباً أن يكون عبد الله بن سلام في

---

319 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص180 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص77 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص491

320 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص183 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص494

321 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص494

322 – سورة الأحقاف : آية رقم 10

323 – أحمد أمين : فجر الإسلام. ص150 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص186

هذه المكانة العالية من العلم ، بعد أن اجتمع لديه علم التوراة وعلم القرآن ، وبعد أن امتزجت فيه الثقافتان اليهودية والإسلامية ، ولقد نقل عنه كثير من المسلمين كثيراً مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها. ونجد ابن جرير الطبري ينسب إليه في تاريخه كثيراً من الأقوال في المسائل التاريخية والدينية ، كما نجده يتجمع حول اسمه كثير من المسائل الإسرائيلية ، يرويها كثير من المفسرين في كتبهم. ونحن أمام ما يروى عنه من ذلك لا نزيف كل ما قيل ، ولا نقبل كل ما قيل ، بل علينا أن نعرض كل ما يروى عنه على مقياس الصحة المعتبر في باب الرواية ؛ فما صح قبلناه ،وما لم يصح رفضناه "324

2. كعب الأحبار :

هو ابن اسحق ، كعب بن مانع الحميري ، المعروف بـ " كعب الأحبار " أو " كعب الحبر " يهودي من اليمن ، أسلم ، وإن كان وقت إسلامه فيه خلاف : فمن قائل إنه أسلم في خلافة أبي بكر الصديق ، ومن قائل إنه أسلم في خلافة عمر بن الخطاب 325

روى كعب الأحبار عن رسول الله ، وعن عمر بن الخطاب ، وعن صهيب ، وعن أم المؤمنين السيدة عائشة ، وأخذ عنه معاوية ، إلا أننا نجد أن أكثر من أخذ عنه من الصحابة : عبد الله بن عباس ، وأبو هريرة 326

كان كعب الأحبار على درجة عالية من العلم ، لكنه لم يترك لنا ما هو مكتوب ، فكل ما وصل إلينا منه يدل على أنه كان يعلم شفاهة ، وما نقل عنه يدل على أنه كان على علم واسع بالثقافتين اليهودية والإسلامية.

---

324 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص186 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص494 ،495 ، أحمد أمين : فجر الإسلام. ص150

325 – أحمد أمين : فجر الإسلام. ص160، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص187

326 – المرجعان السابقان. نفس المواضع

وعدالته – كعب الأحبار – كانت محل تقدير كثيرين ، لكننا نقرأ ما يجعلها موضع شك ، ثم نقرأ الرد على هذا التشكك ؛ أما الأول : فنقرأ قول الأستاذ أحمد أمين " قد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووي لا يروي عنه – أي كعب الأحبار – أبداً ، وابن جرير الطبري يروي عنه قليلاً ، ولكن غيرهم كالثعلبي والكسائي بنقل عنه كثيراً في قصص الأنبياء ، كقصة يوسف والوليد بن الريان وأشباه ذلك ، ويروي ابن جرير أنه جاء إلى عمر بن الخطاب – قبل مقتله بثلاثة أيام – وقال له : اعهد ، فإنك ميت في ثلاثة أيام. قال : وما يدريك ؟ قال : أجده في كتاب الله – في التوراة – قال عمر : إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال : اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحليتك ، وأنه قد فني عمرك. وهذه القصة – إن صحت - دلت على وقوف كعب الأحبار على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية ، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل.

وعلى جملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم وعلمهم

كثير ، كان له فيهم أثر غير صالح "327

وواضح – هنا – ما في هذا القول من الكلام في قيمة كعب الأحبار ، سواء في الرواية أو غيرها.

وأما الثانية فقول الدكتور محمد حسين الذهبي للرد على الأستاذ أحمد أمين " نحن مع الأستاذ في قوله " وهذه القصة – إن صحت – دلت على وقوف كعب الأحبار على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية " ولكننا لسنا نعتقد صحة هذه القصة ، ورواية ابن جرير الطبري لها لا تدل على صحة هذه القصة ، لأن ابن جرير – كما هو معروف – لم يلتزم الصحة في كثير مما يرويه ، والذي ينظر في تفسيره يجد فيه مما لا يصح شيئاً كثيراً ، كما أن ما يرويه في تاريخه لا يعدو أن يكون من

---

327 – أحمد أمين :فجر الإسلام .ص160 ،161

قبيل الأخبار التي تحتمل الصدق والكذب ، ولم يقل أحد بأن كل ما يذكر في كتب التاريخ ثابت صحيح. ثم إن ما يعرف عن كعب الأحبار من دينه وخلقه وأمانته ، وتوثيق أكثر أصحاب الصحاح له ، يجعلنا نحكم بأن هذه القصة موضوعة عليه – أي كعب الأحبار – ونحن ننزه كعباً أن يكون على علم بمكيدة قتل عمر وما دبر من أمرها ، ثم لا يذكر لعمر من يدبر له القتل ويكيد له ، كما ننزهه عن أن يكون كذاباً وضاعاً ، يحتال على تأكيد ما يخبر به بنسبته إلى التوراة وصوغه في قالب إسرائيلي. وأما قوله " وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم وعلمهم كثير ، كان له فيهم أثر غير صالح " فإن أراد أن يرجع ذنب هذا الأثر السيئ إلى كعب الأحبار وأضرابه ، فنحن لا نوافقه عليه ؛ لأن ما يرويه كعب – وغيره – من أهل الكتاب ، لم يسندوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكذبوا فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كانوا يروونه على أنه من الإسرائيليات الموجودة في كتبهم ، ولسنا مكلفين بتصديق شئ من ذلك ، ولا مطالبين بالإيمان به ، وإذا كانت هذه الإسرائيليات المروية عن كعب – وغيره – قد أثرت في عقيدة المسلمين وعلمهم أثراً غير صالح فليس ذنب هذا راجعاً إلى كعب وأمثاله ، لأنهم رووه على أنه مما في كتبهم ، ولم يشرحوا به القرآن – اللهم إلا ما يتفق من هذا مع القرآن ويشهد له – ثم جاء من بعدهم فحاولوا أن يشرحوا القرآن بهذه الإسرائيليات ، فربطوا بينها وبينه ، على ما بينهما من بعد شاسع ،بل وزادوا على ذلك ما نسجوه من قصص خرافية ، نسبوها لهؤلاء الأعلام ترويجاً لها وتمويهاً على العامة ، فالذنب – إذن – ذنب المتأخرين الذين ربطوا هذه الإسرائيليات بالقرآن الكريم ، وشرحوه على ضوئها ، واخترعوا من الأساطير ما نسبوه زوراً وبهتاناً إلى هؤلاء الأعلام ، وهم منه براء"328

ثالثاً :الإسناد :

---

328 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص189 :191

يقوم الحديث – بأنواعه الثلاثة – على أساسين : المتن والسند. ونحن نعلم أن الصحابة كانوا يروون التفسير متحرين الدقة والصحة فيما يروون ، فكانوا – رضي الله عنهم – لا يقبلون حديثاً – أو تفسيراً – إلا بعد التثبت منه متناً ومن راويه سنداً ، لكنهم لم يطالبوا بالإسناد ، لأنهم – كلهم – كانوا عدولاً وأمناء ، حتى إذا طلب أحدهم التثبت من الحديث المروي إما بالشهادة وإما باليمين ، فذلك محض تأكد ، كما جاء القول عن عمر بن الخطاب " إني لا أتهم ، ولكن أحببت أن أتثبت "329

وفي عصر التابعيين ظهر الوضع وفشا ، حتى صار ظاهرة ، وكثر الكذب والتدليس ، فكان قبول الحديث لا بد له من إسناد ، ولرواته من دليل عدل وأمانة ، وفي حال غياب السند أو وجوده مع وجود أحد رواته لا يوثق به ، كان الحديث يرفض ولا يقبل ، ولهذا قيل " لما وقعت الفتنة صار تسمية الرجال "330

وبعد عصر التابعيين وجد من " ألفوا في التفسير فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال غير معزوة إلى قائليها ولم يتحروا الصحة فيما يرون ، فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل. ولهذا جاء قول السيوطي " ألف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال تترى ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ، ثم صار كل من يسنح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شيء يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير ، حتى حكي في قوله تعالى " غير المغضوب عليهم ولا الضالين "331 نحو عشرة أقوال "332

---

329 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص201

330 – المرجع السابق : نفس الموضع

331 – سورة الفاتحة : آية رقم 7

332 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص190

يقول الدكتور الذهبي " إذا كان للوضع خطره ، وللإسرائيليات خطرها ، فإن هذا الخطر كان من الممكن تلافيه لو ذكرت لنا الأقوال بأسانيدها ، ولكن حذفها – وللأسف – عمّى علينا كل شيء ، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع الشتات من الأقوال فعلوا كما فعل ابن جرير من رواية كل قول بإسناده ، فهو وإن كان لم يتحر الصحة فيما يرويه ، إلا أن عذره في ذلك أنه ذكر لنا السند مع كل رواية يرويها. وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن العهدة ، فإن أقوال الرجال كانت معروفة في العهد الأول ، وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة "333

أشهر التفاسير بالأثر :

التفاسير التي كتبت تفسيراً بالمأثور ، صعب على الباحث أن يستقصيها ، نظراً لأن أكثرها غير متوافر بين أيدي الباحثين ، لكن أهم ما كتب في التفسير بالأثر يمكن حصره في : جامع البيان لأبي جرير الطبري ، والمحرر الوجيز لابن عطية ، والدر المنثور للسيوطي ، وبحر العلوم للسمرقندي 334 وسنذكر ثلاثة منها :

1. جامع البيان في تفسير القرآن :

- التعريف بصاحب التفسير :

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الآملي الطبري. ولد سنة 224 هجرية ، بمدينة طبرستان ، وتوفي سنة 310 هجرية بمدينة بغداد.

ولأبي جعفر الطبري مكانة طيبة في العلم ، حتى نعلم أنه " حفظ القرآن وعمره سبع سنين ، وصلى بالناس وعمره ثماني سنين ، وكتب الحديث وعمره تسع سنين "335 ولهذا قيل عنه " هو الإمام الجليل المجتهد المطلق ،

---

333 – محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص*202، 203*

334 – محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص204 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص497 وما بعدها

335 – ياقوت الحموي : معجم الأدباء. مطبعة دار المأمون. مصر. ج18 ص49

أحد أئمة الدنيا علماً وديناً ، طوّف الأقاليم في طلب العلم ، وكتب : كتاب التفسير ، وكتاب التاريخ المعروف بـ " تاريخ الأمم والملوك " وكتاب القراءات ، والعدد والتنزيل ، وكتاب اختلاف العلماء ، وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعيين ، وكتاب أحكام شرائع الإسلام ، وكتاب التبصير في الدين "336 و " هو أحد أئمة العلماء ، يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، كان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقرآن ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في الأحكام ،عالماً بالسنة وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعيين ، ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام "337

- **التعريف بالتفسير :**

هو " جامع البيان في تفسير القرآن " يعد " من أجل التفاسير بالمأثور وأصحها 338 لم يصنف أحد مثله ، ولو رحل أحد إلى الصين لتحصيل تفسير أبي جرير لم يكن ذلك كثيراً عليه "339 وقال الطبري نفسه عن تفسيره " اعلموا عباد الله رحمكم الله أن أحق ما صرفت إلى عمله العناية ، وبلغت في معرفته الغاية ، ما كان في العلم به

---

336 – تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى. دار المعرفة. بيروت. ط2 . مج2 ص135 ،136

337 – الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد. المكتبة السلفية. المدينة المنورة. مج2 ص162 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1= =ص497 ، وللمزيد حول ترجمة الطبري. انظر. جلال الدين السيوطي : طبقات الحفاظ. تحقيق على محمد عمر. مكتبة وهبة. القاهرة. ص307 ، شمس الدين محمد بن علي الداودي : طبقات المفسرين. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة وهبة. القاهرة 1972م ج2 ص106

338 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص103

339 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص497 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص190

رضا وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى ، وأن أجمع ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه ، وتنزيله الذي لا مرية فيه ، الفائز بجريل الذخر وسني الأجر تاليه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ونحن في شرح تأويله ، وبيان ما فيه من معانيه منشئون إن شاء الله ذلك كتاباً مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة ، من علمه جامعاً ، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً ،و مخبرون في ذلك كله بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه الأمة ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ، ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم ، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك بأوجز ما أمكن من الإيجاز ، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه "340

- **منهج التفسير :**

ذهب علماء التفسير إلى القول بأن تفسير الطبري يعتبر " المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلي ، وإن كان في الوقت نفسه يعتبر مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلي ؛ نظراً لما فيه من الاستنباط ، وتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ترجيحاً يعتمد على النظر العقلي والبحث الحر الدقيق 341"

ويعتمد الطبري في تفسيره منهجاً يقوم على اعتبارات عديدة،منها :

1. تفسير القرآن بالقرآن. بمعنى أن الطبري يستدل على الآيات – موضع التفسير أو التأويل – بعضها ببعض ، ثم على تفسير الآيات بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ما روي عن الصحابة والتابعيين ، فيرجح بين آرائهم إذا وجد اختلافاً بين هذه الآراء ، ويجمع بينها إذا قبلت الجمع ، وهو لا يترك قول الرسول صلى الله عليه

---

340 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص3 ،4

341 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص207 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص497

وسلم إنْ صح عنده ، ولا يفارق جميع الآراء المنسوبة للصحابة إن اختلفوا ، بل يتخير منها إن كانت الطرق متوازية في الصحة وقوة السند ، ويرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فسر القرآن الكريم بآياته كلها ، وتعلمها الصحابة عنه نصاً أو إشارة 342

2. عدم الأخذ بمنهج الرأي. حيث نجد الطبري – في تفسيره – يهاجم المفسرين المعتمدين على الرأي وسيلة للفهم والتفسير ، مشدداً في هذا المجال على الاقتصار – فقط – في تفسير القرآن الكريم على ضرورة " الرجوع إلى العلم الراجح عند الصحابة والتابعيين ، والمنقول عنهم نقلاً صحيحاً مستفيضاً ، ويرى أن ذلك هو علامة التفسير الصحيح "343

3. الاعتماد على الأسانيد. حيث رأى الطبري أن الإسناد مدخل إلى الحكم على التفسير بالدقة ، فهو لا يترك الأسانيد هكذا بدون تدقيق ، بل يذكرها محررة ومقربة ، ومجموعة بشكل أكثر دقة مما نجده عند غيره. وهذا لا يمنع أن الطبري – في بعض الأحيان – قد يسوق الأدلة غير صحيحة ، وقد لا ينبه عليها ، وهذا معناه أن الطبري " التزم في تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها ، إلا أنه في الأعم الأغلب لا يتعقب الأسانيد بتصحيح أو تضعيف ، لأنه كان يرى – كما هو مقرر في أصول الحديث – أن من أسند لك فقد حمّلك البحث عن رجال السند ، ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح. فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة. ومع ذلك فابن جرير يقف من السند أحياناً موقف الناقد البصير ، فيعدّل من يعدل من رجال الإسناد ويجرح

---

342 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي.

343- محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علـوم القرآن. ج1 ص210 ، أبوجرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج12 ص138

من يجرح منهم ، ويرد الرواية التي لا يثق بصحتها ، ويصرح برأيه فيها بما يناسبها"344

4. الأخذ بالإجماع. حيث نجد أن الطبري يعتبر الإجماع ركناً من أركان دوام الشريعة واستمراريتها ، فهو- الطبري – في تفسيره " يقدر إجماع الأمة ، ويعطيه سلطاناً كبيراً في اختيار ما يذهب إليه من التفسير ، ونقرأ كثيراً في تفسيره تعليلاً لأحكامه : إجماع الأمة جميعاً"345

5. اعتماد القراءات. فالطبري كثيراً ما يذكر في تفسيره القراءات ، وينزلها على المعاني المختلفة ، وهو كثيراً " ما يورد القراءات التي لا تعتمد عند الأئمة الذين يعتبرون عنده وعند علماء القراءات حجة ، والتي تقوم على أصول مضطربة ، مما يكون فيه تغيير وتبديل لكتاب الله ، ثم يتبع ذلك برأيه في آخر الأمر ، مع توجيه رأيه بالأسباب "346 ، وهذا كله راجع إلى ما اشتهر عن الطبري من اهتمام بعلم القراءات ، بشكل أهّله لأن يكون واحداً من المشهورين فيه 347

6. ضبط التأويل. وهنا نجد الطبري يحد التأويل بحدين : إما أن يكون بالأخذ عما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكون من ذي علم ودراية بطرق وأساليب تفسير القرآن الكريم وفق الضوابط الشرعية. فالطبري يعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فسّر القرآن الكريم كله وبيّنه على وجه الكمال. وإلى هذه الجزئية يشير الطبري بقوله " أما الخبر الذي روي عن رسول الله أنه لم يكن يفسر من القرآن الكريم شيئاً إلا آياً تعد ، فإن ذلك مصحح بأن من تأويل القرآن الكريم ما لا يدرك علمه إلا

---

344 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص212 ، أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج16 ص13

345 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص213 ، أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج2 ص290 وما بعدها

346 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص214

347 – ياقوت الحموي : معجم الأدباء. ج18 ص45

ببيان الرسول ، وذلك يفصل جمل ما في آية من أمر الله ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه ، وسائر معاني شرائع دينه الذي هو مجمل في ظاهر التنزيل ، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة ، لا يدرك علم تأويله إلا ببيان من عند الله على لسان رسول الله ، وما أشبه ذلك مما تحويه آي القرآن من سائر حكمه الذي جعل الله بيانه لخلقه إلى رسول الله ، فلا يعلم أحد من خلق الله تأويل ذلك إلا ببيان الرسول ، ولا يعلمه رسول الله ، إلا بتعليم الله إياه ذلك ، بوحيه إليه إما مع جبريل أو مع من شاء من رسله إليه ، فذلك هو الآي التي كان رسول الله يفسرها لأصحابه بتعليم جبريل إياه ، وهن لاشك آي ذوات عدد. ومن آي القرآن ما قد استأثر الله جل ثناؤه بعلم تأويله ، فلم يطلع على علمه ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ، لكنهم يؤمنون بأنه من عنده ، وأنه لا يعلم تأويله إلا الله ، فأما ما لابد للعباد من علم تأويله ، فقد بيّن لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ببيان الله ذلك له بوحيه مع جبريل ، وذلك هو المعنى الذي أمره الله ببيانه لهم ، فقال له جل ذكره " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون"348 ولو كان تأويل الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه كان لا يفسر من القرآن شيئاً إلا آياً تعد هو ما يسبق إليه أوهام أهل الغباء من أنه لم يكن يفسر من القرآن إلا القليل من آيه واليسير من حروفه ، كان ؛أنما أنزل إليه – عليه الصلاة والسلام – الذكر ليترك ل ناس بيان ما أنزل إليهم ، لا ليبين لهم ما أنزل إليهم ، وفي أمر الله نبيه ببلاغ ما أنزل إليه ، وإعلامه إياه أنه إنما أنزل إليه ما أنزل ليبين للناس ما نزل إليهم وقيام الحجة على أن النبي قد بلّغ ، فأدى ما أمره الله ببلاغه وأدائه على ما أمره به ، وصحة الخبر عن عبد الله بن مسعود لقول: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن ، ما ينبئ عن جهل من ظن أو توهم أن معنى الخبر الذي ذكرنا عن عائشة عن الرسول

---

348 – سورة النحل : آية رقم 44

أنه لم يكن يفسر من القرآن شيئاً إلا آياً تعد ، هو أنه لم يكن يبين لأمته من تأويله إلا اليسير القليل منه ، هذا مع ما في الخبر الذي روي عن عائشة من العلة في إسناده ، والتي لا يجوز معها الاحتجاج به لأحد ممن علم صحيح سند الآثار وفاسدها في الدين ، لأن راويه ممن لا يُعرف في أهل الآثار. وأما الأخبار التي ذكرناها عنه من التابعيين بإحجامه عن التأويل ، فإن فعل من فعل ذلك منهم كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في النوازل والحوادث ، مع إقراره بأن الله تعالى لم يقبض نبيه صلى الله عليه وسلم إليه إلا بعد إكمال الدين به لعباده ، وعلمه بأن لله في كل نازلة وحادثة حكماً موجوداً بنص أو دلالة ، فلم يكن إحجامه عن القول في ذلك إحجام جاحد أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهر عباده ، ولكن إحجام خائف أن لا يبلغ في اجتهاده ما كلف الله العلماء من عباده فيه ، فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من العلماء السلف ، إنما كان إحجامه عنه حذار أن لا يبلغ أداء ما كلف من إصابة صواب القول فيه ، لا على أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة ، غير موجود بين أظهرهم "*349*

وامتداداً لهذا الرأي عند الطبري ، نجده يقسم التفسير ثلاثة أوجه : ما لا يعلمه إلا الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا لا يجوز لأحد أن يقول فيه برأي ، إلا بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم ، وما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وما يمكن علمه لمن ملك القدرة على ذلك من لغة ، وعلوم أخرى مساعدة.

وواضح – هنا – أن هذا الكلام من الطبري مؤسس على ما روي عن عبد الله بن عباس أن رسول الله قال " أنزل القرآن على أربعة أحرف *350* : حلال وحرام ، لا يعذر أحد بالجهل به ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره

---

349 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص30

350 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص182

العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله. ومن أدعى علمه سوى الله فهو كاذب *351*

وينتهي الطبري برأيه هذا إلى القول " قال ابن عباس عن رسول الله : من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا من أن تأويل آي القرآن ، الذي لا يدرك علمه إلاّ بنص رسول الله ، أو بنصه الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه ، بل القائل في ذلك برأيه ، وإن أصاب الحق فيه فمخطئ فيما كان فعله بقيله فيه برأيه ، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق ، وإنما هي إصابة خارص وظان ، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم ، وقد حرم الله ذلك في كتابه على عباده... فقال " قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون "*352* فالقائل في تأويل كتاب الله الذي لا يدرك علمه إلا ببيان رسول الله ، الذي جعله الله ببيانه ، قائل بما لا يعلم ، وإن وافق قيله ذلك في تأويله ما أراد الله به من معناه ، لأن القائل فيه بغير علم قائل على الله بما لا علم له به ، وهذا هو معنى الخبر الذي جاء فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. يعني أنه أخطأ في فعله بقيله فيه برأيه ، وإن وافق قيله ذلك عين الصواب عند الله ، لأن قيله فيه برأيه ليس بقيل عالم إن الذي قال فيه من قول حق وصواب ، فهو قائل على الله ما لا يعلم ، آثم بفعله ما قد نهي عنه وحظر عليه "*353*

---

351 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص24

352 – سورة الأعراف : آية رقم 33

353 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص27 ، وللمزيد حول المنهج عند الطبري. انظر. محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص497 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1

وبوجه عام ، فإن الطبري أقام تفسيره – جامع البيان في تفسير القرآن – على المأثور ، وتحاشى القول بالرأي ، فهو لا يراه – التفسير بالرأي – تفسيراً صحيحاً ، كما أن الطبري أسس تفسيره على معرفة واسعة باللغة العربية ، واعتماد كبير على القراءات ، علاوة على ذكر الأحاديث النبوية التي تزيد تفسيره وضوحاً وإسناداً ، كذلك كان الشعر العربي منظوراً في تفسيره.

2. المحرر الوحيز في تفسير الكتاب العزيز :

- **التعريف بصاحب التفسير :**

هو الحافظ أبو بكر غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي ، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفي سنة ست وأربعين وخمسمائة للهجرة ، وكانت وفاته في مدينة الرقة بالمغرب 354

كان أبوه رجل علم فاضلاً ، إماماً حافظاً ، عالماً جليلاً. سافر لطلب العلم ،فتعلم على كبار العلماء وتفقه عليهم ، ولهذا قيل في حقه " هو شيخ العلم ، وحامل لوائه ، وحافظ حديث رسول الله ، وكوكب سمائه ، شرح الله تعالى لحفظه صدره ، وطاول به عمره ، مع كونه في كل علم وافر النصيب ، رحل إلى المشرق لأداء الفرض ، لابس برد من العمر الغض ، فروى وقيد ، ولقي العلماء وأسند ، وأبقى تلك المآثر وخلد ، نشأ في بيئة كريمة وأرومة من الشرف غير مرومة ، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلام علم ، وأرباب مجد ضخم ، قد قيدت مآثرهم الكتب ، وأطلعتهم التواريخ كالشهب ، وما برح الفقيه أبو بكر يتنسم كواهل المعارف وغواربها ، ويقيد شوارد المعاني وغرائبها ، لاستضلاعه بالأدب الذي أحكم أصوله وفروعه ، وعمر برهة من شبيبته ربوعه ، وبرز فيه تبريز الجواد المستولي على الأمد ، وجلى عن نفسه به كما جلى

ص214 :224 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص86 :92

354 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص25

الصقال عن النصل المفرد " 355 و " كان ابن عطية الوالد حافظاً للحديث ، وطرقه وعلله ، عارفاً بأسماء رجاله ونقلته ، ذاكراً لمتونه ومعانيه ، أديباً شاعراً لغوياً ، ديّناً فاضلاً ،فأكثر الناس الأخذ عنه " 356

أما ابن عطية الابن – أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر – فقد كان عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير ، نحوياً مجيداً باللغة ، فاهماً للأدب شاعراً ، وهو صاحب التفسير المعروف. قيل في حقه " أجلّ من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير " 357 و " هو فتى العمر ، كرسل العلاء ، حديث السن ، قديم السناء ، لبس الجلالة برداً ضافياً ، وورد ماء الأصالة صافياً ، وأوضح للفضل رسماً عافياً ، وثنى من ذهنه للأغراض فتناً قصداً ، وجعل فهمه شهاباً رصداً ، سما إلى رتب الكهول صغيراً ، وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيراً ، فسباها معنى وفضلاً ، وحواها فرعاً وأصلاً ، وله أدب يسيل رضراضاً ، ويستحيل ألفاظاً مبتدعة وأغراضاً "358 و " كان ابن عطية الابن فقيهاً ، عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير ، بارع الأدب ، بصيراً بلسان العرب ، واسع المعرفة ، له يد في الإنشاء والنظم والشعر ، كان يتوقد ذكاء "359

- **التعريف بالتفسير :**

هو " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " يتسم هذا الكتاب بالجمع بين الناحية الشرعية والناحية العلمية ،

---

355 – الفتح بن خاقان : قلائد العقيان. مطبعة التقدم العلمية 1320هـ ط1 ص207

356 – أبو عبد الله شمس الدين الذهبي : تذكرة الحفاظ. دار الفكر العربي. مج2 ص1269

357 – محمد بن يوسف الأندلسي " أبو حيان " : البحر المحيط.ج1 ص9 وما بعدها

358 – د. عبد الوهاب عبد الوهاب فايد : منهج ابن عطية في التفسير. مجمع البحوث الإسلامية. مصر 1973م ص21

359 – جلال الدين السيوطي : طبقات المفسرين. دار الكتب العلمية. بيروت 1983م ط1ص50

ما جعله مقبولاً عند جميع المفسرين 360 وهو ملخص من كتب التفاسير ، خاصة ما كان منها بالنقل ، فأخذ منها أقربها إلى الصواب 361

- **منهج التفسير :**

قام منهج ابن عطية في كتابه " الوجيز " على أساس أنه " يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذبة سهلة ، ويورد التفسير بالمأثور ويختار منه في غير إكثار ، وينقل عن أبي جرير الطبري كثيراً ، ويناقش المنقول عنه أحياناً ، كما يناقش ما ينقله عن غير الطبري ويرد عليه ، وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربي ، معني بالشواهد الأدبية للعبارات ، كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عندما يوجه بعض المعاني ، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية ، كما أنه يتعرض كثيراً للقراءات وينزل عليها المعاني المختلفة 362"

1. ابن عطية يلزم الباحث في العلم – عامة – وفي علم التفسير – خاصة – أن يكون جامعاً لكل علوم عصره ، باذلاً جهده وسني عمره. وهذا معنى كلامه " لما رأيت العلوم فنوناً ، وحديث المعارف شجوناً، وسلكت فإذا هي أودية ، وفي كل للسلف مقامات حسان وأندية ، رأيت أن الوجه لمن تشزن للتحصيل ،وعزم على الوصول ، أن يأخذ من كل علم طرفاً خياراً ، ولن يذوق النوم مع ذلك إلا غراراً

---

360 – عبد الرحمن محمد بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص361 ، مصطفى بن عبد الله " حاجي خليفة " : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. وكالة المعارف الجليلة 1941م /1360هـ مج2 ص392

361 – ابن خلدون : المقدمة. ضبط د. محمد الإسكندراني. دار الكتاب العربي. بيروت 1419هـ/1998م ط2 ص407

362 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص240

، ولن يرتقي هذا النجد ، ويبلغ هذا المجد ، حتى يفضي مطايا الاجتهاد "363

2. يلزم ابن عطية باحث العلم أن يلتزم علماً من علوم الشرع ، كي يدقق فيه ويتقنه. وهذا معنى كلامه " الواجب على من احتبى ، وتحيز في العلوم واجتبى ، أن يعتمد على علم من علوم الشرع ، يستنفد فيه غاية الوسع ، يجوب آفاقه ، ويتتبع أعماقه ، ويضبط أصوله ، ويحكم فصوله ، ويلخص ما هو منه أو يؤول إليه ، حتى يكون لأهل ذلك العلم كالحصن المشيد ، يستندون فيه إلى أقواله ، ويحتذون على مثاله "364

3. ابن عطية يقول عن مجال منهجه " فلما أردت أن أختار لنفسي ، وأنظر في علم أعد أنواره لظلم رمسي ، سبرتها بالتنويع والتقسيم ، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم ، فوجدت أمتنها حبالاً ، وأجملها آثاراً ، وأسطعها أنواراً ، علم كتاب الله جلت قدرته ، وتقدست أسماؤه ، الذي " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد "365 الذي استقل بالسنة والفرض ، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ، هو العلم الذي جعل للشرع قواماً ، واستعمل سائر المعارف خداماً ، منه تأخذ مبادئها ، وبه تعتبر نواشئها ، فما وافقه منها نصع ، وما خالفه رفض ودفع "366

---

363 – أبو بكر غالب بن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق أحمد صادق الملاح. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. مصر 1974م ج1 ص28 وما بعدها

364 – ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ج1 ص29

365 – سورة فصلت : آية رقم 42

366 – ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ج1 ص30 ، وفي تفصيل منهج ابن عطية. انظر. د. سعيد مراد : منهج الإمام الشوكاني في التفسير. القاهرة 1989م ص24 وما بعدها ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص241، 242

3. الدر المنثور في التفسير بالمأثور :

- **التعريف بصاحب التفسير :**

هو الإمام الحافظ جلال الدين بن أبي بكر السيوطي الشافعي " المسند المحقق ، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة "367 ولد سنة 849 هجرية ، وتوفي سنة 911 هجرية بمقياس الروضة ، كان بحراً في العوم ، وتتلمذ على أيدي أكثر من خمسين شيخاً 368 وخلّف لنا أكثر من خمسمائة مؤلف ، حتى قال تلميذه الداودي " عايشت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً "369 وفي الأربعين من عمره انقطع للعبادة وترك الإفتاء ، وبين ذلك في كتاب له أسماه " التنفيس "370

يقول السيوطي " حفظت القرآن ولي دون ثمان سنين ، ثم حفظت " العمدة " و " منهاج الفقه والأصول " و " ألفية بن مالك " وشرعت في الاشتغال بالعلم من مستهل سنة أربع وستين... وأجزت بتدريس اللغة العربية في مستهل سنة ست وستين ، وقد ألفت في هذه السنة ، فكان أول شيء ألفته شرح الاستعاذة والبسملة ، وأجازني " علم الدين البلقيني " بالتدريس والإفتاء من سنة ست وسبعين ، وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي ثلاثمائة كتاب ، سوى ما غسلته ورجعت عنه ، وأفتيت في مستهل سنة إحدى وسبعين ، وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين ، ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة. والذي اعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من

---

367 – ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب. مطبعة القاهرة. ج8 ص52

368 – المصدر السابق : ج8 ص53

369 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص252

370 – المرجع السابق : ج1 ص251

أشياخي ، فضلاً عمن هو دونهم ؛ أما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي فيه أوسع نظراً وأطول باعاً ، ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها : الإنشاء والترسل والفرائض ، ودونها : القراءات ، ولم أخذها عن شيخ ، ودونها : الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شيء علي وأبعده عن ذهني ، وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها العقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضل الله "371

- **التعريف بالتفسير :**

هو " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " ملخص من كتاب " ترجمان القرآن "372 ويقول عنه السيوطي " شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة ، والأقوال المقولة ، والاستنباطات ، والإشارات ، والأعاريب ، واللغات ، ونكت البلاغة ، ومحاسن البدائع ، وغير ذلك... بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلاً ، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين "373 و " وقد جمعت كتاباً مسنداً ، فيه تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابة ، فيه بضعة عشر ألف حديث ، ما بين مرفوع وموقوف ، وأسميته " ترجمان القرآن "374

مما سبق يتبين لنا أن السيوطي كتب كتابه " ترجمان القرآن " وكتابه " مجمع البحرين ومطلع البدرين " أما الأول فقد اختصره إلى " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " وأما

---

371 – جلال الدين السيوطي : حسن المحاضرة. ج1 ص335 وما بعدها

372 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص498

373 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص190

374 – المصدر السابق : ج2 ص183

الثاني فقد جعل " الإتقان في علوم القرآن " مقدمة له 375

- **منهج التفسير :**

1. يعتمد السيوطي في تفسيره على الرفض المطلق للخروج عن المأثور متمثلاً في أقوال وأفعال النبي ، وما ورد عن الصحابة ، فنقرأ " على طالب العلم أن يعتمد في تفسيره كلام الله سبحانه ، وما ثبت عن رسول الله ، ثم عن الصحابة ، فإنهم مع كونهم أعلم من غيرهم بمقاصد الشارع ، هم أيضاً أهل اللسان العربي ، فما وجده من تفاسير رسول الله في الكتب المعتبرة كالأمهات ، وما يلتحق بها ، قدّمه على غيره ، بل يتعين عليه الأخذ به ولا يحل له مخالفته ، وأجمع مؤلف في ذلك وأنفعه وأكثره فائدة : الدر المنثور للسيوطي "376

2. الاعتماد على الإسناد المتصل برسول الله ، فنقرأ " فلما ألفت كتاب " ترجمان القرآن " وهو التفسير المسند عن رسول الله وأصحابه ، وتم بحمد الله في مجلدات ، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات ، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله ، فلخصت منه هذا المختصر مقتصراً فيه على متن الأثر مصدراً بالعزو والتخريج إلى كتاب معتبر "377

****

---

375 - المصدر السابق " ج2 ص190، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص252 ،253

376 - محمد بن علي الشوكاني : أدب الطلب. ص116

377 - جلال الدين السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالمأثور. دار المعرفة. بيروت .ج1 ص2 وما بعدها ، وللمزيد حول منهج السيوطي في التفسير. انظر د. سعيد مراد : منهج الإمام الشوكاني في التفسير. ص32 وما بعدها

الفصل الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث
التفسير بالرأي

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف التفسير بالرأي:

الرأي هو الاعتقاد ، وهو الاجتهاد ، وهو القياس. لذا فنحن نقول : أهل الرأي ، ونعني : أهل القياس.

والتفسير بالرأي إنما هو محاولة من الباحث في علوم القرآن – خاصة علم التفسير – لتوضيح معاني القرآن الكريم بناء على وجهة نظر خاصة ، تتأسس على الاجتهاد ، الذي يتأسس – بدوره – على مجموعة من المفاهيم والأدوات مثل : معرفة لغة العرب واتجاهاتهم في استعمالها ، ومعرفة ظروف النص المفسر ، ومعرفة الدواعي التي تتطلب صرف اللفظ عن ظاهره ، ومعرفة الشعر الجاهلي ، ومعرفة العلل التي قد تكون وراء ترجيح معنى على آخر من بين معاني كثيرة يحتملها النص

المفسر ، ومعرفة أسباب النزول ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ *378*

ويذهب الباحثون – بعضهم – إلى اعتبار أن التفسير بالرأي ليس بدعة المسلمين ، بل إن بعض الصحابة زاوله / مارسه ، ولهذا فنحن نقرأ " فإذا ذهبنا إلى أن الذي يفسر القرآن الكريم معتمداً على مدلول القرآن اللفظي ، أو ما يحتمله اللفظ ، يعتبر مفسراً بالرأي ، نستطيع القول بأن التفسير بالرأي نشأ في أيام الصحابة ، وعلى أيدي الأوائل منهم الذين مارسوا التفسير ، وإمامهم الأول أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب ، ثم عبد الله بن مسعود. وقد اتسع وأخذ شكلاً مدرسياً على يد عبد الله بن مسعود ، حيث ثبت عنه تفسير لنصوص قرآنية بالمدلول اللغوي مستشهداً على صحة تفسيره بمشابهة مدلول الكلمة في الشعر الجاهلي القديم "*379*

.وهذا يعني أن دراسة التفسير بالرأي " قد نشأت في الأيام الأولى لنشوء التفسير ، ولم يسبقه التفسير بالأثر بوقت طويل ، بل كانت ممارسته الأولى تعتبراً تفسيراً بالرأي "*380*

<u>حكم التفسير بالرأى :</u>

لا ينكر الباحثون في علوم القرآن – التفسير خاصة – أن التفسير بالرأي قد لاقى صعوبة كبيرة ، تمثلت أكثر ما تمثلت في ذهاب البعض إلى " تحريم " الأخذ به على كل

---

378 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص255 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص571 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص92 وما بعدها ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص78

379 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص92، 93

380 – المرجع السابق : ص93

المستويات ، على حين ترك المجال مفتوحاً أمام التفسير بالأثر ، لدرجة أن أصحاب التفسير بالرأي كانوا " يضعون لآرائهم أسانيد عن أحد أئمة التفسير من الصحابة أو التابعيين ليتقبلها المسلمون ، مما يدل على صعوبة تقبل المسلمين للتفسير بالرأي إلى وقت متأخر "381

ومن الأمثلة على تقدير – بل وتقديس – المسلمين للتفسير بالأثر ، وإحجامهم عن تقبل التفسير بالرأي والعمل به " تحول مدرسة عبد الله بن عباس إلى التفسير بالمأثور ، مع أنها ابتدأت تفسيراً بالرأي. وأن ابن عباس كان أجسر الصحابة على النصوص القرآنية تفسيراً وتأويلاً ، بما آتاه الله سبحانه من ذكاء ثاقب ، وببركة دعاء الرسول له " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " التي خلّفت عنده القدرة على التفسير والفقه في التفسير "382

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى القول بأن علماء التفسير قد اختلفوا في جواز تفسير القرآن الكريم بالرأي ، ووقفوا إزاء هذه القضية موقفين متعارضين :

فريق تشدد في المنع ، فلم يجرؤ على تفسير شيء من القرآن الكريم ، ولم يبحه لغيره ، وقال : لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن الكريم ، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار ، وإنما له أن ينتهي إلى ما روي عن رسول الله ، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة ، أو ممن أخذ عنهم من التابعيين 383

وفريق لم ير شيئاً محرماً أن يفسر القرآن الكريم بالاجتهاد ، فكل من له دراية بالأدب واللغة ومثل ذلك ، يمكنه أن يفسر القرآن الكريم برأيه واجتهاده 384

---

381 – المرجع السابق : نفس الموضع

382 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي.

383 – الراغب الأصفهاني : مقدمة التفسير. ص422 ،423 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص180

384 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون . ج1 ص256

وواضح – هنا – أن الفريقين المتنازعين يقف كل واحد منهما على طرف نقيض من الآخر ، وبطبيعة الحال ، فإننا سوف نجد لكل فريق أدلته وحججه وبراهينه التي يقيم عليها موقفه.

- **أولاً : أدلة المانعين :**

نستطيع – من جانبنا – أن نحصر أدلة من قالوا بعدم جواز تفسير القرآن الكريم بالرأي في أربعة أدلة :

1. يقدم المانعون للتفسير بالرأي دليلهم الأول على صحة المنع ، في صورة قياس منطقي من الشكل الأول : فيه مقدمة صغرى ، وأخرى كبرى ، ونتيجة. أما المقدمة الصغرى فقولهم : إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم. وأما المقدمة الكبرى فقولهم : القول على الله بغير علم منهي عنه. النتيجة : التفسير بالرأي منهي عنه.

القول على الله بغير علم منهي عنه

التفسير بالرأي قول على الله بغير علم

∴ التفسير بالرأي منهي عنه

ويقيم المانعون للتفسير بالرأي أدلتهم على قياسهم هذا ، فيقولون بأن دليل المقدمة الصغرى – عندهم – أن الذي يفسر القرآن الكريم بالرأي لا يكون على يقين من قوله ، وما ليس بيقين فهو ظن ، والظن قول على الله بغير علم ، لأن قائله لا يمكن أن يؤكد أنه على صواب ، أو أنه قد أصاب مراد الله بقوله هذا.

وأما دليل المقدمة الكبرى – عندهم – فإن القرآن الكريم قد نص على تحريم القول على الله تعالى بغير علم ، إذ جاء " القول " معطوفاً على ما قبله من المحرمات ، فيسري عليه حكمها[385] " قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا

---

385 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص27

بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون "386

ويرد على هذا الدليل القائلون بجواز التفسير بالرأي ، بإبطال نتيجة القياس عن طريق إبطال مقدمتيه :

فالمقدمة الصغرى يردها المجيزون بقولهم بأن القول بالظن نوع من العلم فيما ليس فيه نص قاطع ولا دليل عقلي ، إنما يستند على علم من الله ، أي على دليل قطعي منه سبحانه على صحة العمل بهذا الظن ، لأن الظن – هنا – إدراك الطرف الراجح ، لقوله تعالى " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها "387

والمقدمة الكبرى تمتنع ، لأن الظن يصير منهياً عنه إذا أمكن الوصول إلى العلم الصحيح اليقيني القطعي ، بأن يقوم هذا العلم على نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة من النصوص الشرعية ، وإلا فيقوم على دليل العقل الموصل لذلك ، وإذا لم يوجد هذان الأمران ، فالظن لا يكون منهياً عنه ، بل يعد كافياً للوصول إلى العلم ، وهنا دليلان من السنة النبوية المطهرة :

أولهما : قوله ، صلى الله عليه وسلم ، لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن " بم تحكم يا معاذ ؟ قال : بكتاب الله. قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله. قال : فإن لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي. فضرب رسول الله في صدره ، وقال الحمد الله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله "388

2. استدل المانعون لصحة قولهم بالمنع وتأييد موقفهم هذا ، بقول الله تعالى " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما

---

386 – سورة الأعراف : آية رقم 33

387 – سورة البقرة : آية رقم286

388 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص93 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص257 ، عبد الرحمن محمد بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية ج13 ص364

نزّل إليهم "389 وواضح هنا من النص القرآني الكريم إضافة البيان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما نفهم منه أنه ليس لأحد غيره – عليه الصلاة والسلام – شيء من البيان لمعني القرآن الكريم 390

ويرد على هذا الدليل القائلون بجواز تفسير القرآن الكريم بالرأي ، يقولون " نعم ، إن النبي مأمور بالبيان ، ولكنه مات ولم يبين كل شيء ، فما ورد بيانه عنه ففيه الكفاية عن فكرة من بعده ، وما لم يرد عنه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده ، فيستدلون بما ورد بيانه على ما لم يرد. والله تعالى يقول في آخر الآية : لعلهم يتفكرون "391

3. وكما استدل المانعون على صحة موقفهم بآيات من القرآن الكريم ، فقد استدلوا – أيضاً – على ذلك بأحاديث من السنة النبوية الشريفة ، بما يلي :

1. قوله صلى الله عليه وسلم " اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم ، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار "392

2. قوله صلى الله عليه وسلم " من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ "393

ويرد على هذا الدليل القائلون بجواز تفسير القرآن الكريم بالرأي بما يلي :

---

389 – سورة النحل : آية رقم 44

390 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 179

391 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص257 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص179

392 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص523 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص258 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص179

393 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص258 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص179 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص523

1. أن النهي – هنا – محصور في الأمور التي لا يكون العلم بها إلا بطريق النبي أو أصحابه ، مثل : مشكل ومتشابه القرآن ، وما إلى ذلك من الأمور التي" أطلع الله عليها نبيه من أسرار الكتاب واختصه به ، وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له – عليه الصلاة والسلام – أو لمن أذن له 394"

2. أن النهي – هنا ، أيضاً – محصور في الواقفين عند ظاهر النصوص كلاماً وحروفاً ، من غير " أن يستندوا إلى نقل أو يكلفوا أنفسهم البحث عن مبهمات القرآن وما فيه من حذف وإضمار ، وتقديم وتأخير... ونحو ذلك ، فالنقل لابد منه لكل مفسر ، كيلا يقع في الخطأ. أما التوسع في الفهم واستنباط صحيح الآراء فهو خطوة أخرى بعد النقل ، لأن الأخذ بظاهر العربية وحده غير كاف ولا سديد. تأمل قوله سبحانه " وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها "395 فإن معناه : وآتينا ثمود الناقة معجزة واضحة ، وبينة لائحة ، تدلهم على صدق صالح ، وصدق ما جاء به ، فظلموا أنفسهم. والواقف عند ظاهر اللغة العربية يظن أن المراد من الإبصار نظر العين ، ولا يدري بماذا ظلموا ، ولا من ظلموا ، أظلموا أنفسهم أم غيرهم ؟ "396

3. الرأي المذموم – هنا – ليس بإطلاق ، بل هو الرأي الذي " يغلب على صاحبه من غير دليل يقوم عليه ، أما الذي يشده البرهان ، ويشهد له الدليل ، فالقول به جائز ، فالنهي على هذا :

متناول لمن كان يعرف الحق ولكنه له في الشيء رأي وميل إليه من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن الكريم على

---

394 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص180 ،183 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص523 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص258

395 – سورة طه : آية رقم 24

396 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص524 ؛ د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص259

وفق هواه ، فيحتج به على تصحيح رأيه الذي يميل إليه ، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لما لاح له هذا المعنى الذي حمل القرآن الكريم عليه.

ومتناول لمن كان جاهلاً بالحق ، ولكنه يحمل الآية التي تحتمل أكثر من وجه على ما يوافق رأيه وهواه. ويرجّح هذا الرأي بما يتناسب مع ميوله ، ولولا هذا لما ترجح عنده ذلك الوجه.

ومتناول – أخيراً – لمن كان له غرض صحيح ، ولكنه يستدل لغرضه هذا بدليل قرآني ، يعلم أنه ليس مقصوداً به ما أراد ، مثل الداعي إلى مجاهدة النفس ، الذي يستدل على ذلك بقول الله تعالى " اذهب إلى فرعون إنه طغى "397 ويريد من فرعون " النفس " ، ولا شك أن مثل هذا قائل في القرآن برأيه 398

أما الحديث الثاني ، الذي جاء نصه " من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ " فيمكن الإجابة عنه بأنه حديث لم تثبت صحته. وعلى فرض أنه حديث صحيح ، فقد يمكن صرف معناه إلى " الخطأ في طريق التماس المعنى " ذلك لأن الطريق لمعرفة ألفاظ القرآن الكريم هو معرفة اللغة العربية – وبها نزل القرآن – وعلومها وآدابها ، والطريق إلى معرفة أسباب نزول القرآن الكريم ، ومعرفة الفارق بين الناسخ والمنسوخ... الطريق هنا هو النقل الصحيح عن الرسول ، والطريق إلى معرفة مراد الله تعالى من هذه الآية أو تلك على وجه اليقين إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن " لم يظفر بوارد ، فلا بأس من أن يقيس

---

397 – سورة الإسراء : آية رقم 59

398 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص258 ،259 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص524 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص179،183

ويجتهد ، ويستدل بما ورد على ما لم يرد "399 إضافة إلى أن هذا الحديث – زيادة عما تقدم – معدود في غير الصحيح ، لأنه لم يثبت صحته ، لأن " من رواته سهيل بن أبي حزم ، وهو متكلم فيه ، قال فيه أبو حاتم : ليس بالقوي ، وكذا قال البخاري والنسائي ، وضعفه ابن معين ، وقال فيه الإمام أحمد : روى أحاديث منكرة ، والترمذي نفسه يقول فيه بعد روايته لهذا الحديث : وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم "400

4. ما علم عن الصحابة والتابعيين ، من أنهم كانوا يكبرون " تفسير القرآن الكريم ، ويتحرجون أن يقولوا فيه ، وهناك أدلة / شواهد على ذلك ، سواء من تاريخ الصحابة ، أو من تاريخ التابعيين :

فمن ذلك ما نعلمه من أن أبا بكر الصديق لما سئل عن شيء من القرآن الكريم ، قال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ، وأين أذهب ، وماذا أصنع ، إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى *401*

ومن ذلك ما نعلمه من أن سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم ، فإذا سئل عن تفسير آية

---

399 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص524 ، د. مساعد مسلم آل جعفر : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي .ص100

400 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص259،260 ؛ د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص101،100

401 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص27 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص100،99 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص113 ، عبد الرحمن بن قاسم العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص371 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص 524 ،525 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص260

من آيات الله في القرآن الكريم سكت كأن لم يسمع شيئاً *402*

ومن ذلك ما نعلمه من أن الشعبي كان يقول : ثلاثة لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن والروح والرؤى *403*

ويرد على هذا الدليل القائلون بجواز تفسير القرآن الكريم بالرأي ، بما يلي :

1. إحجام السلف الصالح عن القول في القرآن الكريم ، إنما هو تعبير عن التقوى والورع ، والخوف ألا يصيب قولهم الحقيقة التي يبغونها من وراء تفسير القرآن الكريم ، فموقفهم هذا " ورع ألا يصيبوا عين اليقين ، والورع : ترك ما لا بأس به حذراً من الوقوع فيما به بأس "404

2. إحجام السلف الصالح عن القول في القرآن الكريم ، يجب أن يفهم أنه إحجام تقييد لا إطلاق ، فهو مقيد بما لم يعرفوا منه وجه الصواب أو اليقين ، أما إذا عرفوا وجه الصواب فيما يريدون القول فيه – لو كانت معرفتهم ظنية – فقولهم لا بأس به 405 بمعنى أن السلف الصالح كان إحجامهم " تقييداً بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه ، فإذا عرفوا وجه الصواب فكانوا لا يتحرجون من إبداء ما يظهر لهم ، ولو بطريق الظن ، فهذا أبو بكر الصديق يقول – وقد سئل

---

402 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص101 ، عبد الرحمن محمد العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص373 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص525 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص260

403 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص260 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص525 ، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص102 ، عبد الرحمن محمد العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص374

404 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص525 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص261

405 – أبو جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن. ج1 ص30

عن الكلالة – : أقول فيها برأيي ، فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان : الكلالة كذا وكذا 406"

3. الإحجام – هنا – قد يفهم منه أنه تقييد بما كان من التفسير على وجه قاطع ، فيما لم يقم فيه دليل قاطع.

4. الإحجام – هنا – قد يفهم على أنه تقييد " بما إذا قام غيرهم بواجب تفسير القرآن وبيانه ، أما إذا انحصرت المسئولية فيهم ، فمعقول أنهم لا يمتنعون وقتئذ ، وإلا كانوا كاتمين للعلم وآثمين وحاشاهم من ذلك "407

- **ثانياً : أدلة المجيزين :**

وكما حصرنا أدلة المانعين للتفسير بالرأي في أربعة أدلة ، يمكننا حصر أدلة من أجازوا التفسير بالرأي في أربعة أدلة :

1. أول دليل يقدمه المجيزون للتفسير بالرأي مستمدٌ من القرآن الكريم :

2. قوله تعالى " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها "408

قوله تعالى " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب "409

وهاتان الآيتان الكريمتان دلّتا على أن الله تعالى " حث على التدبر للقرآن الكريم ، والاعتبار بآياته ، والاتعاظ بمواعظه ، وهذا يدل على أن أولي الألباب ، بما لهم من العقل السليم ، واللب الصافي ، عليهم أن يتأولوا ما لم يستأثر الله بعلمه ، إذ التدبر والاتعاظ فرع على الفهم والتفقه في كتاب الله "410

---

406 – د. محمد حسين الذهبي:التفسير والمفسرون. ج1 ص261 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص525

407 – المرجعان السابقان : نفس الموضع

408 – سورة محمد : آية رقم 24

409 – سورة ص : آية رقم 29

قوله تعالى " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم "411

فهذه الآية الكريمة تدل على أن في القرآن الكريم " ما يستنبطه أولو الألباب باجتهادهم ، ويصلون إليه بإعمال عقولهم ، وإذا كان الله تعالى قد حثنا على التدبر ، وتعبدنا بالنظر في القرآن الكريم واستنباط الأحكام منه ، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله تعالى بعلمه محظوراً على العلماء ، مع أنه طريق العلم ، وسبيل المعرفة والعظة ؟ لو كان الأمر كذلك لكنا ملزمين بالاتعاظ والاعتبار بما لا نفهم ، ولما توصلنا لشيء من الاستنباط ، ولما فُهم الكثير من كتاب الله تعالى "412

3. لما كان الإسلام صالحاً لكل زمان ، فلابد أن تصلح أحكامه دوماً ، وهذا لازم له الاجتهاد ، فلو كان التفسير بالرأي غير جائز " لما كان الاجتهاد جائزاً ، ولتعطل كثير من الأحكام ، وهذا بيّن البطلان ، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلى اليوم – وبعد اليوم – أمام أربابه ، والمجتهد في حكم الشرع مأجور ، أصاب أو أخطأ ، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يفسّر كل آيات القرآن الكريم ، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام "413

4. من الثابت – تاريخياً – أن الصحابة هم أعلم المسلمين بالقرآن وأحكامه ، ومع ذلك فقد اختلفوا في

---

410 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص526 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص262

411 – سورة النساء : آية رقم 83

412 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص262 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص526 ، عبد الرحمن بن محمد العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص332

413 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص262 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص526 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص100 وما بعدها

تفسيره ، وهذا يدل أنهم لم يسمعوا تفسير القرآن الكريم – ككل – من النبي ، إذ أنه لم يبين لهم " كل " معاني القرآن الكريم ، بل بيّن لهم بعض هذه المعاني ، والبعض الآخر توصلوا إليه – رضي الله عنهم – عن طريق إعمال العقل والاجتهاد ، فلو كان تفسير القرآن الكريم بالرأي غير جائز شرعاً ، لكان الصحابة أكثر الناس معرفة بهذا وأكثر الناس التزاماً به ، فلما ثبت لنا أنهم اجتهدوا فقد ثبت أن الاجتهاد – والتفسير فرع عليه – جائز ، ذلك لأن الصحابة لا يفعلون ما يخالف الدين بأي حال من الأحوال 414

5. ورد في الآثار أن النبي دعا لابن عمه عبد الله بن عباس " اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل " فلو افترضنا – جدلاً – أن تأويل القرآن الكريم ، أو تفسيره بالرأي ، من الأمور غير الجائزة شرعاً ، بل من الأمور السمعية ، لما كان لهذا الدعاء قيمة ، فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل ، مثله مثل التنزيل ، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء. فدل ذلك على أن التأويل الذي دعا به الرسول لابن عباس ، أمر آخر وراء النقل والسمع ، ذلك هو التفسير بالرأي والاجتهاد ، وهذا " بين لا إشكال فيه 415"

مما سبق يمكننا القول بأن التفسير بالرأي قسمان : قسم جائز. وهو ما استوفى الشروط المؤهلة له ، كموافقة كلام العرب وطرق استخدامهم للعربية ، وموافقة القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة. وآخر غير جائز. وهو ما خرج عما هو معروف من اللغة واستخداماتها ، وما

---

414 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 262،263

415 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص51، 236 ، الراغب الأصفهاني : مقدمة التفسير. ص423 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص179 ، عبد الرحمن بن محمد العاصمي : مجموع فتاوى ابن تيمية. ج13 ص365 ، د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص101

جاء غير موافق – لقليل أو كثير – من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة 416

مقومات التفسير بالرأي :

لما كان علماء التفسير قد قسّموا التفسير إلى قسمين : أحدهما جائز محمود ، والآخر منهي عنه غير جائز مذموم 417 فقد جعلوا الفيصل بين ما هو جائز وما هو غير جائز ، مجموعة صفات إن توافرت في المفسر أهلته لأن يكون تفسيره محموداً ، وإلاّ كان تفسيره على غير ذلك : تفسير غير محمود 418

إن علم التفسير – خاصة التفسير بالرأي – له شروط ضابطة تجعل العمل فيه أكثر دقة ومنهجية في كيفية تناول المسائل التي يعالجها هذا العلم ، وبالتالي تكون نتائجه – ثمرته – أكثر صحة ويقيناً ، خاصة إذا كان هذا العلم يمثل حاجة ضرورية للمسلم – كفرد – وللمسلمين – كمجتمع.

1. لعل من أول – وأهم – هذه المقومات : صحة الاعتقاد . ذلك لأن المفسر إذا كان مغموضاً عليه في دينه ، فهو لن يكون أميناً على الدنيا ، فما بالنا بالدين ؟419 فعلى الباحث في علم التفسير أن يعلم أن من شروط هذا العلم " صحة الاعتقاد أولاً ، ولزوم سنة الدين ، فإن كان مغموضاً عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا ، فكيف على

---

416 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص526، 527 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص264، 265 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص78 وما بعدها

417 – محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص501 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص265 ، د. فهد عبد الرحمن الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه. ص79 وما بعدها

418 – في هذه المقومات.انظر جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص181،180 ، محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن. ج1 ص519 :522 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص265 :572

419 – ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير. ص14

الدين ، ثم لا يؤتمن من الدنيا على الأخبار عن عالم ، فكيف يؤتمن في أخبار عن أسرار الله ؟ ويجب أن يكون اعتماده على النقل عن النبي وعن أصحابه ومن عاصرهم ، ويتجنب المحدثات ، وإذا تعارضت أقوالهم وأمكن الجمع بينها فعل ، فيأخذ منها ما يدخل فيه الجميع ، فلا تنافي بين القرآن وطريق الأنبياء وطريق السنة وطريق النبي وطريق أبي بكر وعمر ، فأي هذه الأقوال إنْ أفرده كان حسناً ، وإن تعارضت رد الأمور إلى ما ثبت فيه السمع ، فإن لم يجد سمعاً ، وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما ، رجّح بأقوى الاستدلال فيه – كاختلافهم في معنى حروف الهجاء ، يرجح قول من قال إنها قسم – وإن تعارضت الأدلة في المراد وعلم أنه قد اشتبه عليه ، فيؤمن بمراد الله منها ، ولا يتهجم على تعيينه ، وينزله منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه "420

2. سلامة القصد : حيث نعلم أن من شروط المفسر العامل في علم التفسير أن يكون مقصده صحيحاً ، فمن شروطه " صحة المقصد فيما يقول ، ليلقى التسديد ، فقد قال الله تعالى " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا "421 وإنما يخلص له القصد ، إذا زهد في الدنيا ، لأنه إذا رغب فيها ، لم يؤمن أن يتوسل به إلى غرض يصده عن صواب قصده ويفسد عليه صحة علمه "422

3. اللغة : بمعنى أن يكون الباحث متمكناً من " الإعراب ، لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام ، فإنه إذا خرج بالبيان عن وضع اللسان ، إما حقيقة وإما مجازاً ، فتأويله تعطيله 423"

---

420 – طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة. تحقيق كامل كامل بكري ، عبد الوهاب أبو النور. دار الكتب الحديثة. ج2 ص579

421 – سورة العنكبوت : آية رقم 69

422 – طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة. ج2 ص580

423 – المصدر السابق : نفس الموضع

4. المعاني والبديع وعلوم أخرى : فالباحث في علم التفسير يجب أن يعلم أن " علم التفسير الذي لا يتم تعاطيه من إحالة النظر فيه كل ذي علم ، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ 424 والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن... هما : علم المعاني ، وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زماناً ورجع إليه ورد عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقّادها ، يقظان النفس ، درّاكاً للمحة وإن لطف شأنها ، منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها ، لا فظّاً قاسياً ولا غليظاً جافياً ، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف طالما دفع إلى مضايقه ووقع في مضاحضه ومزالقه"425

وبناء على هذه الصفات – وغيرها – نجد القول " إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم

---

424 – ابن القرّية : من مشاهير العرب في الفصاحة ، واسم أمه القرّية

425 – جار الله الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. دار الفكر 1977م ط1 ج1 ص15 وما بعدها ، طبعة دار المعرفة. بيروت. ج1 ص3

مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات "426

5. النحو : ذلك لأن المعنى يتغير باختلاف موقع اللفظ من الإعراب ، فلابد – من ثم – من أن يكون المفسر عارفاً بالنحو وقواعده ، ليكون أقدر على بيان المعنى المراد من اللفظ.

6. علم التصريف : فبهذا العلم يعرف المفسر " الأبنية والصيغ ، حتى قالوا : من فاته علم التصريف فقد شيئاً عظيماً ، فمثلاً... كلمة " وجد " تعد مبهمة ، فإذا صرفناها بانت بمصادرها ، ومثال ذلك خطأ البعض في فهم كلمة " الإمام " في قوله تعالى " يوم ندعوا كل أناس بإمامهم "427 قالوا : المقصود بـ " إمام " جمع " أم " فالناس يدعون يوم القيامة بأسماء أمهاتهم لا بأسماء آبائهم ، وهذا ليس صحيحاً ، وقد قام هذا الفهم الخاطئ على جهل بعلم التصريف ، ذلك لأن " أماً " لا تجمع على إمام "428

7. علم القراءات : بمعنى أن المفسر يجب أن يكون على دراية واسعة بأوجه القراءات ، حيث إن العارف بهذا العلم " يعرف كيفية النطق بالقرآن ، ويعرف بالقراءات ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض "429

8. علم أصول الدين : وهو علم الكلام ، فبهذا العلم " يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى ، وما يجوز ، وما يستحيل ، وأن ينظر في الآيات المتعلقة

---

426 – ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن. نشر. السيد أحمد صقر. دار التراث 1973م ط2 ص23 ، الشوكاني : أدب الطلب.ص99 :123

427 – سورة الإسراء : آية رقم 71

428 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص181،180 ، د. محمد حسين الذهبي : لتفسير والمفسرون. ج1 ص266

429 – جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 ص181 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص267

بالنبوات والمعاد ، نظرة صائبة ، ولولا ذلك لوقع المفسر في ورطات "430

9. علم أصول الفقه : وهو علم يؤهل المفسر لأن يعرف طرق الاستنباط للأحكام من الآيات ، وطرق الاستدلال عليها وبها ، ويعرف ما هو مطلق وما هو مقيد ، وما هو مجمل وما هو مبين ، وما هو عام وما هو خاص ، وما هو أمر وما هو نهي.

10. علم أسباب النزول والقصص : فبهذا يعرف المفسر معنى الآية ، إذ يعرف سبب نزولها ، كما أن معرفة القصة بشكل مفصل يعد من أهم الوسائل التي تعين المفسر على توضيح ما جاء في القرآن الكريم مجملاً.

11. علم الناسخ والمنسوخ : حيث إن الجهل بهذا العلم يوقع في محاذير شرعية ، ليس أقلها احتمالية أن يحكم المفسر على شيء ما بحكم هو في أصله منسوخ.

جاء عن الشيخ محمد عبده قوله " للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير ، وهذه هي التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد ، لقوله تعالى " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر "431 وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور :

أحدها : فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن. بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقبول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد ، من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً ، أو على وجه مخصوص ، لكنه جاء في القرآن بمعان أخرى ، كقوله تعالى " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين

---

430 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 267 ، جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن. ج2 181

431 – سورة القمر : آية رقم 17

نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق "432 فما هذا التأويل ؟ يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ، ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب ، فكثير ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى. فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله ، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية ، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه ، وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه بعضه ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

ثانيها : الأساليب. حيث ينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة ، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه. مع الإقرار بأننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ، ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة ، ويحتاج في هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب " المعاني والبديع " ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب. ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق ، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ، أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا ، وإنما هي ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ، ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم ، عندما اختلطوا بهم ، ولو كان طبيعياً ذاتياً لما فقدوه في مدة خمسين سنة بعد الهجرة.

---

432 - سورة الأعراف : آية رقم 53

ثالثها : علم أحوال البشر. فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب ، وبين فيه ما لم يبين في غيره ، بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم ، والسنن الإلهية في البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها ، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ، ومناشيء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير ، علويه وسفليه ، ويحتاج هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه. فلا يعقل – مثلاً – لأحد أن يفسر قول الله تعالى " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين "[433] وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ، وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها ، وهل كانت نافعة أو ضارة ، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم.

لقد أجمل القرآن الكريم الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية ، وعن آياته في السموات والأرض ، وفي الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً ، وأمرنا بالنظر والتفكر ، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره ، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة.

رابعها : العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن. فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي ، أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم ، وكيف يفهم المفسر ما قبّحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها ، إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ هل يكتفي من علماء القرآن – دعاة الدين والمناضلين عنه – بأن يقولوا تقليداً لغيرهم : إن الناس كانوا على باطل ، وإن القرآن الكريم قد دحض أباطيلهم

---

[433] – سورة البقرة : آية رقم 213

في الجملة ؟؟ وقد روى أن عمر بن الخطاب قال : إن جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذي يخشى أن ينقض عرى الإسلام عروة عروة. والمراد : أن من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله ، يجهل تأثير هدايته ، وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر ، ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور ، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي ، كما ترى بعض الذين يتربون في النظافة والنعيم يعدون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو ؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة من تلك الأوامر ، وتأثير تلك الآداب من أين جاء.

خامسها : العلم بسيرة النبي وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل ، وتصرف في الشؤون دنيويها وآخرويها 434

أشهر التفاسير بالرأي :

لسنا ندعي أن ما سنذكره من كتب التفسير بالرأي ، هو حصر لهذا المؤلفات في هذا الفرع من التفسير ، ذلك لأن عصر التدوين للتفسير خلّف لنا ذخيرة كبيرة من المؤلفات في التفسير – بوجه عام – والتفسير بالرأي – بوجه خاص – وما سوف نعرض له يمثل – فقط – أمثلة لما كتب في هذا المجال :

1. الكشّاف :

- التعريف بصاحب التفسير :

هو : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، لغوي شهير ، ولد في إحدى قرى خوارزم سنة سبع وستين وأربعمائة ، رحل إلى بغداد ومكة ، حيث لزم بيت الله الحرام ، ولعل هذا أن يكون سبباً وراء تسميته " جار الله ".

ويعد الزمخشري واحداً من أعلام الشريعة والأدب والبلاغة ، وعلوم اللغة بوجه عام ، كما كان عالماً بفنون

---

434 – الشيخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار. ج1 ص21 :24 ، نقلاً عن د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص269 :272

الكلام وطرائقه ، وقد كتب في كل هذه الفروع ، كما كتب في الحديث وعلومه ، إضافة إلى كونه شاعراً مشهوداً له بالإجادة 435

أما مذهبه فهو حنفي المذهب ، على معتقد المعتزلة ، وكثيراً ما يدلل الباحثون على اعتزازه برأيه أنه كان يصارح – ويفاخر – بعيقدته الاعتزالية ويناظر عليها في وقت لم يكن المعتزلة الوجود الأقوى 436

وقد قيل في حق الزمخشري " هو النحوي اللغوي المتكلم المعتزلي المفسر ، الملقب : جار الله ، لأنه جاور بمكة زماناً ، وكان ممن برع في الأدب والنحو واللغة. لقي الكبار ، وصنف التصانيف ، ودخل خراسان عدة نوب ، وما دخل بلداً إلا اجتمعوا عليه وتتلمذوا له ، وكان علامة الأدب ، ونسّابة العرب ، تضرب إليه أكباد الإبل "437

ومع اعتزاله ، واعترازه بالاعتزال ، فقد قيل في حقه " محمود بن عمر الزمخشري المفسر النحوي ، صالح لكنه داعية إلى الاعتزال ، أجارنا الله ، فكن حذراً من" كشافه " لكنه في غاية المعرفة ، وفنون البلاغة ، وتصريف الكلام. وكتابه " أساس البلاغة " من أحاسن الكتب ، وقد أجاد فيه وبين الحقيقة من المجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً. وكتابه " الفائق في غريب الحديث " من أنفس الكتب لجمعه المتفرق في مكان واحد ، مع حسن الاختصار وصحة النقل. وله كتاب " الفصل في النحو " مشهور. وله مصنف في المشتبه ، فيه فوائد جليلة. وأما التفسير فقد أولع الناس به وبحثوا عليه وبينوا دسائسه ، وأفردوها بالتصنيف ، ومن رسخت قدمه في السنة وقرأ

---

435 – عز الدين بن الأثير : اللباب في تهذيب الأنساب. دار صادر. بيروت 1980م ج2 ص74 ، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي : تذكرة الحفاظ. دار الفكر العربي. مج2 ص1283

436 – ابن كثير : البداية والنهاية. دار الفكر العربي. ج12 ص219

437 – جلال الدين السيوطي : طبقات المفسرين. ص105

طرفاً من اختلاف المقالات انتفع بتفسيره ولم يضره ما يخشى من دسائسه "438

وقد كتب الزمخشري " التصانيف البديعة منها الكشاف في تفسير القرآن العظيم ، لم يصنف قبله شيء ، والفائق في الحديث ، وأساس البلاغة في اللغة ، وربيع الأبرار وفصوص الأخبار ، ومتشابه أسامي الرواة ، والنصائح الكبار والنصائح الصغار ، وضالة الناشد والرائض في علم الفرائض ، والمفصل في النحو ، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير ، والأنموذج في النحو ، والمفرد والمؤلف في النحو ، ورؤوس المسائل في الفقه ، وشرح أبيات سيبويه ، والمستقصى في أمثال العرب ، وصميم العربية ، وسوائر الأمثال ، وديوان التمثيل ، وشقائق النعمان ، والقسطاس في العروض ، ومعجم الحدود ، والمنهاج في الأصول ، ومقدمة من الآداب ، وديوان الرسائل ، وديوان الشعر ، والرسالة الناصحة ، والأمالي في كل فن... وغير ذلك "439

- **التعريف بالتفسير :**

هو " الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل "... وهو تفسير قيم ، يقوم لصاحبه شاهداً بأنه – صاحبه – ذو قدم راسخة في العلوم كلها : النقلية منها والعقلية ، ولعل ما قيل في حق " الكشّاف " يبين لنا قيمته... " اعلم أنه من الضروري معرفة علوم كالتفسير والحديث ، فإن المفسر إذا بلغ إلى معرفة ما في علم التفسير من فائدة ، لا سيما عند قراءة " الكشاف " للزمخشري ، ومن سلك مسلكه ، فإن فيه مباحث من التدقيقات الراجعة إلى علم الكلام ، لا يفهمها حق الفهم

---

438 – ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت 1971م مج6 ص4 وما بعدها

439 – ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب. ج4 ص119 ، شمس الدين محمد بن علي الداودي : طبقات المفسرين. تحقيق علي محمد عمر. مكتبة وهبة. القاهرة 1972م ص315

إلا من عرف هذا الفن واطلع على مذاهب المعتزلة والأشاعرة وسائر الفرق "440

- **منهج التفسير :**

لعل أحسن من يقدم لنا منهج الزمخشري في التفسير ، هو الزمخشري نفسه ، حيث نجده يقول " رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية ، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية ، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية ، فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا في الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك ، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن " حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " فاستعفيت ، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد ، والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين ، ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلاً عن أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعني والبيان ، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح ، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة ، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب ، طويل الذيول والأذناب ، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم ، وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه ، وأخذت في تكثير الفوائد والفحص عن السرائر "441

ويمكن حصر أسس المنهج عند الزمخشري في الآتي :

1. ضرورة الجمع بين قواعد اللغة العربية ، وأصول الدين.
2. ضرورة التمكن من علمي المعاني والبيان ، حتى سمى الباحثون " الكشاف " : التفسير البلاغي.

---

440 – الشوكاني : أدب الطلب. ص114

441 – جار الله الزمخشري : الكشاف. طبعة دار المعرفة. بيروت .ج1 ص3،4

3. عدم الوقوف على ظاهر النص ، بل لابد من البحث عن المفهوم غير الظاهر من النص ، ولا يقتصر الفهم على مجرد ترديد آراء من سبق من المفسرين.
4. تأسيس التفسير على مفاهيم الكلام بوجه عام ، وكلام المعتزلة بوجه خاص.

2. مفاتيح الغيب :

- **التعريف بصاحب التفسير :**

هو : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التميمي... الملقب " فخر الدين " ويعرف بـ " ابن الخطيب الشافعي " ولد في مدينة الري سنة 554 هجرية ، وتوفي بها سنة 606 هجرية 442

يعتبر الفخر الرازي عند الدارسين علاّمة زمانه ، بحيث إنه لم يترك علماً من العلوم – عقلية أو نقلية – إلا وكتب فيها : فكتب في التفسير والكلام والأصول والتعليقات والطب والمناقب واللغوبات والفلك.

أخذ الرازي العلم عن أبيه ضياء الدين. المشهور بـ " خطيب الري " وعن الكمال السمعاني ، والمجد الجيلي ، وكثير ممن لقيهم من علماء عصره.

بلغ من شهرة الرازي العلمية والوعظية أن قيل في حقه " كان يعظ الناس باللسان العربي والأعجمي ، فهو أفصل المتأخرين ، وسيد المحدثين ، قد شاعت سيادته ، وانتشرت في الآفاق مصنفاته وتلامذته ، وكان إذا ركب يمشي حوله ثلاثمائة تلميذ فقهاء ، وغيرهم ، وكان خوارزم شاه يأتي إليه ، وكان شديد الحرص جداً في العلوم الشرعية والحكمية ، جيد الفطرة ، حاد الذهن ، حسن العبارة ، كثير البراعة ، قوي النظر في صناعة الطب ومباحثها ، عارفاً بالأدب ، وله شعر بالفارسي والعربي ، ويتكلم على المنبر بأنواع من الحكمة ، وكان الناس يقصدونه من البلاد ، ويهاجرون إليه من كل ناحية ، على اختلاف مطالبهم في العلوم ، وتفننهم فيما يشتغلون به ، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرونه منه ،

---

442 – خير الدين الزركلي : الأعلام. ج7 ص203

قال : والله إنني لأتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل ، فإن الوقت والزمان عزيز. وقد تميز الرازي حتى لم يوجد أحد في زمانه يضاهيه ، وكان لمجلسه جلالة عظيمة ، وكان يتعاظم حتى على الملوك "443

ويقول الرازي عن نفسه " اعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم ، فكنت اكتب في كل شيء شيئاً ، لا أقف على كمية وكيفية سواء كان حقاً أو باطلاً ، غثاً أو سميناً ، إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتبرة لي ، أن هذا العالم المحسوس ، تحت تدبير مدبر منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ، ولقد أختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن الكريم ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات المتناقضات ، وما ذاك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة ، والمناهج الخفية ، فلهذا أقول : كلما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية فذاك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به ، وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد في القرآن الكريم والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو "444

ومن أهم ما كتب الرازي في التفسير : تفسيره الكبير ، المعروف بـ "مفاتيح الغيب " وله تفسير سورة الفاتحة. وفي علم الكلام له : المطالب العالية ، وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان. وفي أصول الفقه له : المحصول. وفي الحكمة له : الملخص ، وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة. وفي

---

443 – ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق. نزار رضا. دار مكتبة الحياة. بيروت.ص462 :467

444 – المصدر السابق : ص464 ، الشوكاني : أدب الطلب. ص117

الطلسمات له : السر المكنون. كما أن الرازي شرح كتاب في النحو للزمخشري ، وكذلك شرح كتاب الوجيز في الفقه لأبي حامد الغزالي 445

- **التعريف بالتفسير :**

هو " التفسير الكبير " أو " مفاتيح الغيب " أو " تفسير الفخر " لم يكمله الرازي ، وأما من أكمله ، فهذه مسألة لها أكثر من إجابة :

فمن قائل إن الذي أكمله هو أحمد مكي المخزومي القمولي المصري.

ومن قائل إن الذي أكمله هو شهاب الدين الخولي الدمشقي 446

وعدم تكملة الشرح على يد صاحبه لم يؤثر في الإطار العام لهذا الشرح ، لا في المنهج ولا في المسلك ، بحيث إن القارئ له لا يكاد يميز بين ما هو أصل وما هو تكملة.

وقد أقام الرازي تفسيره على مسلك الحكماء الإلهيين ، فجاءت أدلة التفسير عنده – خاصة التي تتعلق منها بالإلهيات – على طرق الاستدلال العقلية ، وإن كان الرازي قد صاغها في قوالب موافقة لمذهب أهل السنة والجماعة ، خاصة وأنه كان شافعي المذهب منحازاً – بل متعصباً – للشافعي 447

أما عن التفسير المتعلق بالكونيات ، فقد سعى الرازي إلى جعل هذا كله مقدمات أو دلائل على وجود الله تعالى.

- **منهج التفسير :**

يقول الرازي مبيناً منهجه في التفسير – على وجه الإجمال – " اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن

---

445 – ابن خلدون : المقدمة. ضبط د. محمد الإسكندراني. دار الكتاب العربي. بيروت 1419هـ /1998م ط2 ص461 ، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 290

446 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص291

447 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص201

سورة الفاتحة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة "448 ما نفهم منه أن منهج الرازي تمثل في الآتي :

1. الإكثار من إيراد الأدلة ، وإطالة الحوار والجدل والنقاش ، وذكر الأقوال ، حتى إنه في علاقة الآيات بعضها ببعض لا يكتفي بذكر مناسبة واحدة ، بل يذكر أكثر من مناسبة ، طالما كان لها علاقة بجزئية تفسيره 449

2. الرد على المخالفين ، من خلال عرض المسائل الكلامية ، وفق قناعات الرازي السنية الأشعرية الشافعية ، إلا أنه كثيراً ما تكون ردوده غير كافية أو غير شافية ، حيث نقرأ " ليس هناك من بين التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي ، ومن تفسير الإمام فخر الدين ، إلا أنه كثير العيوب ، حيث يورد شبه المخالفين في المذهب والدين ، على غاية ما يكون من التحقيق ، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق ، على غاية من الوهاء ، وهذا دأبه في كتبه الحكمية والكلامية ، حتى اتهمه بعض الناس ، ولكنه خلاف ظاهر حاله ؛ لأنه لو كان اختار قولاً أو مذهباً ما ، ما كان يخاف منه حتى يستر عنه ، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالاً فى تقرير دليل الخصم ، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شيء من القوى ، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية ، وقد صرح في مقدمة نهاية العقول : أنه مقرر مذهب خصمه تقريراً لو أراد خصمه تقريره لم يقدر الزيادة على ذلك "450

3. عدم التوسع في المسائل الأصولية توسعه في المسائل الكلامية ، لأنه قليل الاعتماد على الأحاديث ، حتى لو وجدت فتخريجها والدقة فيها غير متوافر ، ولهذا

---

448 – الفخر الرازي : مفاتيح الغيب. دار الفكر. بيروت 1981م ج1 ص11 وما بعدها

449 – الفخر الرازي : مفاتيح الغيب. ج1 ص12، د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص294

450 – ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان. ج4 ص427،428

قالوا " هناك من أئمة التفسير من ليس لهم اشتغال بعلم السنة كالزمخشري والرازي ، حيث يوردون في تفاسيرهم الموضوعات التي لا يشك من له أدنى اشتغال بعلم الحديث في كونه موضوعاً مكذوباً "451 وهذا يعني أن الفخر الرازي رغم أنه لا يكاد يمر بآية من آيات القرآن الكريم لها تعلق من قريب أو بعيد بالأحكام ، إلا ويذكر أقوال الفقهاء فيها ، مع إظهار المذهب الشافعي على غيره من المذاهب 452 ثم إنه يكثر من إيراد المسائل النحوية والبلاغية ، رغم هذا كله... فقد كان الرازي مقلاً في المسائل الشرعية ، حتى لنظن أن كتابه – التفسير الكبير – أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام ، وفي علوم الكون ، والطبيعيات ، حيث نجد هذا كله غالباً على معظم أجزاء الكتاب ، ما قلل من أهميته كتفسير للقرآن الكريم ، وصار القول فيه " إن في التفسير الكبير كل شيء إلا التفسير "453

3. أنوار التنزيل وأسرار التأويل :

وهذا ما سنعرض له بالتفصيل في الباب القادم.

****

---

451 – الشوكاني : أدب الطلب. ص53

452 – د. مساعد مسلم : أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. ص201

453 – د. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون. ج1 ص296،295 ، د. على محمد حسن العماري : الإمام فخر الدين الرازي. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. مصر 1969م ص117 وما بعدها ، د. سعيد مراد : منهج الإمام الشوكاني في التفسير. ص30،29

Orsenkardi.com